المدارِسُ النِّظاميَّةُ
سيرةٌ وتاريخ

د. أيمن يزبك

ملخّص

يلقي هذا البحث الضَّوءَ على ميدانٍ مِن ميادين الدِّراسات التَّاريخية، وهوَ موضوعٌ متكامل من كل جوانبه الحضارية التي تعد مقوماتٍ للمنهج الإنساني المتكامل الذي أَرادَهُ الله للبشرية.

لقد أسهمت المدارس النظامية في إثراء حركة الفقه الإسلامي وبناء الموسوعات العلمية والحد من التمدد الباطني، كما ساعدت في إيقاد شعلة الجهاد في نفوس الأجيال في الأماكن التي غزاها الصليبيون. فقد أعدت المدارس النظامية الكوادر العلمية للدولة الإسلامية بجناحيها الفكري والعسكري، فكانت بذلك نموذجاً فريداً يقف كمنارةٍ للمؤسسات العلمية في كل العصور.

الكلمات المفتاحية: الوزير نِظام المُلْك، الإصلاح السُّنّي في القرن الخامِس، أبو اسحاق الشِّيرازي، نِظامية نَيْسابور، نِظامية بغداد، إمامُ الحَرَمين عبد المَلِك الجويني، الإمام أبو حامد الغزالي، المدُّ الباطني.

Nizamiye Medreseleri: Tarih ve Doktrin

Dr. Eymen Yezbek

Özet

Bu çalışma, medeniyet tarihinde mühim bir mevki işgal eden Nizamiye Medreseleri'nin tarihine ışık tutmayı amaçlamaktadır. Nizamiye medreseleri İslâm fıkhının zenginleşmesine katkı sunduğu gibi ilmî bir geleneği ihdâs etmiş ve kuruluş gayesiyle mütenasip surette bâtınî hareketin yayılmasına mani olmuştur. Ayrıca, Haçlı orduları tarafından işgal edilen beldelerdeki nesillerin gönlünde cihad meşalesini tutuşturmaya da yardımcı olmuştur. Bu medreseler, askeri ve siyasi olarak İslam devletinin çekirdek kadrosunu da yetiştirmek suretiyle takip eden asırlarda da ilmî müesseseler için eşsiz bir örneklik teşkil etmiştir.

Anahtar Kelimeler: Nizâmülmük, Ebû İshâk eş-Şîrâzî, Nişabur Nizamiyesi, Cüveynî, Gazâlî.

The Nezami Schools

Dr. Ayman Yazbek

Abstract

This research sheds light on a field of the historical studies that represents an integrated method that tackles all the vases of civilization included in the method that Allah wanted for the humanity.

The nizami schools takes part in enriching the movement of the Islamic Feqh and in forming the Islamic encyclopedias. In addition, it helps in preventing the spread of Shias. it also helps in urging people in the places invaded by the crusaders to perform Jihad.

The Nezami schools has provided scholars and experts for the Islamic State in both of the of ideological and the military fields. Thus, it becomes a unique model that stands as a minaret for all the other schools throughout ages.

Keywords: The Minister Nezam al-Molk, The Sunni reformation in the fifth century, Abu Ishaq Al-Sheirazi, Baghdad Nezami school, Nishabur Nezami school, The Imam of the two Harams; Abdul Qadir Al-Jurjani, Abu Hamed Al-Ghazali, The spread of Shia.

المقدّمة

لا بُدَّ قبل المُضيّ في الحديث عن المدارس أَنْ نَذْكُرَ ولو بعباراتٍ موجزة الأصلَ الذي تَفَرَّعَت منهُ المدارسُ ألا وهوَ المسجدُ الذي ظلَّ وعبر قرونٍ طوال مركزَ الإشعاع العلمي، والمنارةَ التي تستقطبُ الناسَ إليها على اختلاف ألسنتهم وألوانهم، فقد كان يُدَرَّسُ فيه القرآنُ والسنَّة وتفسيرُهما، والفقه وأُصولُه، وعلوم اللغة العربية، والأدب، والأخلاقُ، والتربيةُ. وكان المسلمون أثناءَ الفتوحات كلَّما دخلوا قريةً أقاموا فيها مسجدًا، وجعلوا فيه إمامًا يَؤمُّ الناس في صلاتهم، ويُعلِّمُهُم تعاليم الإسلام حتى تَوَزَّع بذلك الصَّحابةُ رضوان الله عليهم حيثُما وصلت فتوحاتُهم في بلاد الشام، والعراق، ومصر، وشمال إفريقية. فحيثُ ما وُجِدَ المسلمون وُجِدَ المسجدُ، وَوُجِدَ فيه حلقات التعليم؛ من تعليم القرآن الكريم والسنَّة الشريفة وكلِّ ما أَخَذَهُ الصحابةُ عن نبيِّهم؛ كُلٌّ بحسب ما كان عنده من علمٍ وفقه.[1]

ومع تطوَّر نظام الوقف تَباينَ دورُ المساجد فيما بينها بحسب أوقافها، وتسابق الخلفاءُ والأُمراء والأثرياءُ في الإنفاق على المساجد، ووقفوا عليها الوقوفَ الكثيرةَ؛ الأمرُ الذي أَدّى إلى زيادةٍ في النشاط العلمي داخل هذه المساجد؛ فتنَوَّعت حلقاتُها ولم تنحصر في علوم الشريعة فقط، فقد دُرِّسَ الطِّبُّ في مسجد ابن طولون في مصر، وعلمُ الكيمياء في مسجد دمشق وكذلك علمُ الرياضيات.

وبعد ظهور المدارس الفقهيَّة للمذاهب الأربعة: الحنفيَّة، والمالكيَّة، والشافعيَّة، والحنبليَّة بالإضافة إلى دُور الحديث والقرآن، ومدارس الطبِّ، وظاهرةِ الخوانق والرُّبُط والزوايا والتي بدأ ظهورُها منذُ بدايات القرن الخامس/ الحادي عشر الميلادي وهو القرن الذي شهدَ في أواسطهِ ما اصطلح عليهِ المؤرخون اسمَ المدارس النظاميَّةِ في بغداد التي انتشرت بعدها لتعمَّ أقطاب العالم الإسلامي، وعلى الرغم من أنَّ هذه المدارسَ لعبت دورًا جَبَّارًا في مناهضةِ الفكر الباطني المنتشر آنذاك، وتعليمِ المسلمين وتثقيفهم وتوعيتهم، وتحويلِ واقعهم من أزمة

١ أبو الدرداء وسلمان الفارسي في دمشق، وابن مسعود في الكوفة، وأبو هريرة في البحرين، وعمرو بن العاص وجماعة معه في مصر وشمال إفريقية.

الوعي إلى وعي الأزمة المحيطةِ بهم، إلَّا أنَّ الفضل الأكبر يعودُ للمسجد الذي أعدَّ هذا الجيل الواعيَ لواقع الأمَّة. ويبقى المسجدُ كتلكَ النخلة التي أُخذَ من جذوعها أغصانٌ؛ لتزرع في أماكنَ شتَّى فتنبتَ مدارسُ تتمِّمُ عملَ المسجد، وتُكملُ دورهُ. لقد ذكرنا هذه العِبارات المنمَّقة حياءً من المسجد، وتقديساً لحرمته، ولكيلا يتصوَّر أحدٌ أنَّ المدارسَ قد نافست المساجد وأخذت دورَها. إلَّا أنَّ الأمانة العلمية تقتضي لزومًا ذكرَ الحقيقةِ المُرَّةُ أَلا وهي أَنَّ المساجد لم يُمَكَّن لها أَنْ تحافظ على استقلالها عن المذاهب الفقهية بِسَبَبِ الخِلافات بينَ أَتباعِ المذاهِب؛ ممَّا دفع سلطان المماليك الظاهر بيبرس عام (٦٦٤هـ/ ١٢٦٥م) إلى إحداث أربعةَ مناصبَ رسميَّةٍ في الدولة وهي قاضي الحنفيَّة، وقاضي المالكيَّة، وقاضي الشافعيَّة، وقاضي الحنابلة. وأَدَّى هذا الأمر إلى وجود أربعةِ محاريبَ في كثير من المساجد حَتَّى صارَت صلاةُ حنفيٍّ وَراءَ شافعيٍّ مشكوكٌ بِصِحَّتِها أو العكس شافعي وراءَ حنفي. بل الأكثرُ من ذلك أنَّ هناك مساجدُ حُسبت لمذهبٍ دونَ آخر؛ إمَّا لأنَّ واقف المسجد ينتمي لهذا المذهب، أو لأنَّ أئمَّة المسجد يتبعونَ هذا المذهب أو ذاك. أضف إلى ذلك أنَّ انتماء الحكَّام لمذهبٍ ما، يُسهم في انتشار مدارسه ودعمِ فقهائِه. كما هو الحال مع أسرة نظام الملك وحكَّام البيت الأيُّوبي.

وبعد الحديث عن المساجد ودورها الريادِيّ في تثقيف وتعليمِ أبناء الأمَّة لكونها المركز القيادي منذ عهد النبي صلَّى الله عليه وسلَّم، والدورِ الكبير الذي لعبه المسجدُ في حركةِ التعليم عبر التاريخ الإسلامي، جاءَ نظامُ المدارس ليكون مرحلةً متقدِّمة من نظام التعليم العالي، وواحدةً من المؤسسات التعليمية الكبرى والتي جمعت بين العلوم الدينية والدنيوية، وليسَ الأمر كما يراه بعضُ الباحثين بأنَّها وُجدت لتحجيم دور المساجد، وتدريس العلوم الدينية، واستهلاكٍ لطاقات النشاط والإبداع لدى العلماء سيَّما أنَّ هذه المدارس قد تضمَّنت مسجدًا في داخل كلِّ واحدة منها.

والسؤال المطروح هنا هو: هل بقيت المساجدُ تلعبُ الدورَ الريادي بعد نشوء المدارس في العراق والشام ومصر وبلدانٍ أخرى؟ ولماذا ظهرت المدارسُ

في وقت سادَ فيه الفكر الباطني أرجاءً واسعة من بلاد المسلمين في ذاك الوقت؟ فهل كان المسجد غير قادرٍ على تقديم أجيالٍ للأمَّة تنقذها من أزمتها؟ إذًا كان حالُها آنذاك يشبه حال المساجد في هذا الوقت أمام الخضمِّ الهائل من الجامعات والمعاهد والمدارس. وبقيت ضمن إطارٍ ضيّقٍ لا يتعدى إقامة الصلاة، ودروس الفقه وإقامةَ الموالد.

تاريخ المدارس

لم يكن النظام المدرسيُّ من حيث الفكرة من إبداع المسلمين أنفسِهم. فقد عرفت الشعوبُ القديمة نظام المدارس كاليونان والرومان ومن قبلهم العرب الكلدانيين في العراق، والعموريين في شمال سورية.[1] ومع الفتوحات الإسلامية واطِّلاع المسلمين على ثقافات الشعوب، ونظمهم التعليمية والسياسية والاقتصادية، أَخَذَ المسلمون الفكرةَ وطوَّروها لتكون مراكزَ للبحث العلمي والاجتماعي والاقتصادي ضمن نظام التعليم العالي. وقد تميَّزت الحركةُ العلمية في الإسلام بالتعدُّد والتنوُّع في مراحل التعليم بدءًا من مرحلة الكتاتيب مرورًا بالمسجد وحلقاته ومجالس العلماء، لتأتِ مرحلةُ التخصُّص في المدارس.

ومع أنَّ المدارس جمعت بين العلوم الدينيَّة والدنيوية، فإنَّ المنهج الإسلامي في التعليم يقوم على تعليم الطالب أصولَ دينه، ويركِّز على بناء العقيدة الصحيحة، وترسيخِ الولاء لهذا الدين، ولأمَّةِ هذا الدين الإسلامي، فينشأ الطالب على أسس إسلاميةٍ ويكون علمُه لأمَّته لا لغيرها كما هو حال معظم الذين خرجوا إلى بلاد الغرب من أبناء الأمة لينهلوا العلم فبقوا يرتعونَ هناك. فما هو المنهج الذي تربَّوا عليه في مرحلة التعليم الأساسي، والمراحل العليا؟

ومع اتساع دائرة العلوم الشرعية، والتطبيقية، والطبيعية اقتضى الأمرُ إيجاد مدارِس تعلُّم الطبِّ والصيدلة؛ ولذلك بُنيت هذه المدارس الخاصة بالعلوم التطبيقية، وَأُلْحِقَت بالمستشفيات لمعاينة المرضى أمام الطالب، وقاعات لإلقاء

١ تاريخ الفكر الديني الجاهلي، محمد إبراهيم الفيومي، ١٥٤-١٥٥، ١٦٠، ٢٢٣.

المحاضرات، ومخابرَ لتصنيع الدواء، ومسجدٍ لأداء الصلوات.

وقد أسهمت هذه المدارسُ في توجيه الطاقات نحو التخصص لتطوير العلوم. وقد أثمرت هذه الفكرةُ، وآتت أُكُلَها. ونجح المسلمون بفضل هذه المدارس في كشف الأمراض، وطرق علاجها، وتحضير أدويتها. فَأُلِّفَت في ذلك موسوعاتٌ في علم الطبِّ والنبات، وكذلك في علم الميكانيك والهندسة، وبناء المراصد الفلكيَّة. وفي علوم الشريعة ظهرت مدارسُ لكلِّ مذهبٍ أسهمت في إثراء المذهب، وأُلِّفت موسوعاتٌ فقهيَّة لكلِّ مذهب.

آراء المؤرِّخين حول نشأة المدارس

لا تزال آراءُ المؤرخين إلى يومنا هذا متباينةً حول تاريخ ظهور هذه المؤسسة عند المسلمين فمنهم من يعود بتاريخ ظهورها إلى نهايات القرن الثاني للهجرة/ الثامن الميلادي، في حين أنَّ السبكي (ت٧٧١هـ/ ١٣٦٩م) جعل من القرن الرابع للهجرة/العاشر الميلادي بدايةَ ظهور المدارس وخاصَّةً في نيسابور[١] التي شهدت ظهورَ العديد من المدارس في هذا القرن، مخالفًا بذلك شيخَه الذهبي (ت٧٤٨هـ /١٣٤٧م)[٢] الذي جزم ومِن قبله ابنُ الأثير (ت٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م)[٣] بأنَّ الوزير نظامَ الملك (ت٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م) هو من أحدث المدارسَ في الإسلام. حيث قال السبكي: "شيخنا الذهبي زعم أنَّه أولُ مَن بنى المدارس، وليس كذلك فقد كانت المدرسةُ البيهقية بنيسابور قبل أن يولَد نظامُ الملك، والمدرسة السعدية بنيسابور أيضًا بناها الأميرُ نصرُ بن سبكتكين أخو السلطان محمود لمَّا كان واليًا بنيسابور، ومدرسة ثالثة بنيسابور بناها أبو سعد إسماعيل بن علي بن المثنى الإستراباذي

١ نَيسابور بفتح أوَّلها، والعجم يسمونها نشاوور. فتحها المسلمون في عهد الخليفة عثمان بن عفان، وأمير الجند يومئذ عبد الله بن عامر، عام٣١هـ/ ٦٥١م، ولعلَّ هذا هو الفتح الثاني بعد نقض أهل نيسابور العهد مع المسلمين، وانقلبوا عليهم حيث كان الأحنف بن قيس قد فتحها عام٢١هـ/ ٦٤١م في عهد الخليفة عمر بن الخطاب، وهي من كبرى مدن خراسان، وكان منبت العلماء عبر التاريخ، وإليها ينسب رضي الدين النيسابوري أستاذ الفقهاء الذي كان يحضر مجلسه ٤٠٠ من الفقهاء الفضلاء، ومنها أبو القاسم القشيري، وإمام الحرمين عبد الملك الجويني أستاذ النظامية وغيرهم كثير. انظر: معجم البلدان، الحموي، ٥/ ٣١، آثار البلاد وأخبار العباد، القزويني، ١/ ٤٧٤.

٢ الذهبي: تاريخ الإسلام، الذهبي، ٣٣/ ١٤٦.

٣ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ابن الأثير، ٨/ ٣٥٧.

الواعظ الصوفيُّ شيخ الخطيب، ومدرسة رابعةٌ بنيسابور أيضًا بُنيت للأستاذ أبي إسحاق الإسفراييني،[1] وهنا يعبِّر المقريزي في الخطط بأنَّ ظاهرة نشوء المدارس في هذا الوقت لهو خير دليلٍ على الاهتمام الواسع بالعلم[2].وهذه الآراء صحيحة بالجملة ومقبولة إذا ما أخذنا بعين الاعتبار أنَّ المدارسَ وإن ظهرت قبل نظام المُلك فإنَّها وجدت لحساب مذهبٍ معيَّنٍ عقائدي أو فقهي؛ حتى المدارس النظامية كانت تُحسب لصالح مذهبٍ معيَّن وعلى هذا النحو نذكر هذه المدارسَ بحسب الترتيب الزمني وهي على النحو الآتي:

- **مدرسة الحديث في بخارى**، وقد أنشأها أحمد بن حفص الفقيه (ت٢١٧هـ/ ٨٣٢م) في نهايات القرن الثاني للهجرة/ الثامن الميلادي، وقد جعلها لتدريس علم الحديث ولازمَها حتى وفاته، ولعلَّ الإمام البخاريَّ صاحب الصحيح الجامعِ قد تتلمذَ في هذه المدرسة؛ لأنَّ أحمد بن حفص من شيوخ البخاري، وقد روى عنه في صحيحه.

- **مدرسة أبي الوليد حسَّان** (ت٣٤٩هـ/ ٩٦٠م) وبحسب المصادر فهي أول مدرسةٍ تخصَّصت في مذهب الإمام الشافعي.[3]

- **المدرسة البُستية**: أنشأها ابن حبَّان البستي (ت٣٥٤هـ/ ٩٦٥م)[4] نحو عام ٣٠٥هـ/ ٩١٧م، وأوقفها لتدريس الفقه الشافعي.

- **مدرسة محمد بن عبد الله بن حمشاذ** (ت٣٨٨هـ/ ٩٨٨م) وهي على المذهب الشافعي، وقد قضى جلَّ عمُره يدرِّس فيها الفقه الشافعي[5].

---

١ السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، السبكي،٤/ ٣١٤.

٢ المقريزي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، المقريزي،.٢/ ٣٦٣.

٣ حسان بن مُحَمَّد بن أَحْمد بن هَارُون بن حسان بن عبد الله بن عبد الرَّحْمَن بْن عَنْبَسَة بن سعيد بن الْعَاصِ القرشي صاحب كتاب المستخرج على صحيح مسلم، وكَانَ إِمَام أهل الحَدِيث بخراسان. انظر: طبقات الشافعية الكبرى، السبكي،٣/ ٢٢٧.

٤ محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بكسر الحاء المهملة وبالباء الموحدة من بني تميم، مولده في بُست وهي من نواحي نيسابور. انظر: الذهبي: تاريخ الإسلام، الذهبي، ٨/ ٧٣.

٥ طبقات الشافعية ابن قاضي شهبة ١/ ١٦٤.

- **مدرسة الإمام البيهقي** (ت٤٥٨هـ/ ١٠٦٥م): وهي أعظمُ مدرسةٍ أُنشأت في فقه الشافعي، وكان لها فضلٌ على المذهب كلِّه، وقد صرف بانيها جلَّ حياته لدراسة فقه الشافعي، ووضع فيه المؤلفات، وجمع نصوصَ الشافعي كلَّها، ولم يسبقه لهذا أحدٌ، ولم يتابعه في هذا أحدٌ؛ لأنَّه وفَّر على من جاء بعده هذا العناء، وهو بذلك صاحبُ فضل على كلِّ أتباع هذا المذهب، ويذكر السبكيُّ مقالةً لإمام الحرمين الجويني إذ يقول:« ما من شافعي إلَّا وللشَّافعيّ في عُنُقه منَّةٌ إلَّا البيهقِيَّ فإنَّه لهُ على الشَّافعي منَّةٌ؛ لتصانيفه فِي نصرته لمذهبه وأقاويله»[١] وظلَّت المدرسة البيهقيَّة حتى ظهور المدارس النظامية تتصدَّر رئاسةَ المذهب الشافعي بقيادة إمامها البيهقي على الرغم من تعدُّد مدارس هذا المذهب في نيسابور وغيرها، وكان من شبه النادر أن تجد مدرسةً تختصُّ بغير مذهب الشافعي على أنَّه وُجدت مدارسُ أخرى تعتني بعلم الحديث والقرآن الكريم وقراءاته مثلُ المدرسة الرشائية التي أنشأها أبو الحسن رشا بن نظيف بن ماشاء الله (ت٤٤٤هـ/ ١٠٥٢م)[٢] نحو عام ٤٠٠هـ/ ١٠٠٩م في دمشق.[٣]

- ومع نهايات القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي قام أبو بكر بن فورك (ت ٤٠٦هـ/ ١٠١٥م)[٤] بإنشاء أوَّل مدرسةٍ جمعت بين الفقه الشافعيّ والمذهب الأشعري، وكانت هي النواةُ الأولى التي استوحى منها الوزيرُ نظام المُلْك فكرةَ المنهج الذي أَنْشأَ عليه مدارسه أواسط القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي والتي ظلَّت على هذا المنهج حتى آخر تلميذٍ تخرَّج منها وهو الفيروز

١ طبقات الشافعية الكبرى، السبكي،٤، ١٠ - ١١.

٢ أصله من معرة النعمان، سكن دمشق وقرأ القرآن على أبي الحسن بن داود الداراني بحرف ابن عامر، وقرأ على جماعة من قراء العراق ومصر بعدة روايات، وقرأ عليه جماعة آخرهم موتا أبو الوحش سبيع بن المسلم بن قيراط الضرير. انظر: تاريخ دمشق، ابن عساكر ١٨، / ١٤٨ - ١٤٩.

٣ تاريخ الإسلام، الذهبي، ٣٠ / ٩١ - ٩٢. الصفدي: الوافي بالوفيات، الصفدي، ١٤/ ٨٢، دور القرآن في دمشق، النعيمي، ١١ - ١٤، الدارس في تاريخ المدارس، النعيمي، ١، / ٩ – ١٠، منادمة الأطلال، عبد القادر بدران، ١٦.

٤ محمد بْن الحَسَن بْن فُورَك أبو بكر، من كبار علماء الأشعرية ومنظريهم، راسله أهل نيسابور ليقدم عليهم فبنو له مدرسة فجلس يدرس فيها مذهب أبي الحسن الأشعري والفقه الشافعي، وصنف حوالي مئة مصنف، وقد تتلمذ على يده أبو القاسم القشيري وأبو بكر البيقهي. انظر: وفيات الأعيان وأنباء الزمان، ابن خَلِّكان، ٤/ ٢٧٢.

آبادي (ت٨١١هـ/ ١٤٠٨م)[١] حيث انتهت بعد هذا التاريخ المدارس النظامية.

- وفي عام ٤٥٧هـ/ ١٠٦٤م أنشأ الفقيهُ أبو شجاعٍ بهرام بن بهرام البيعي مدرسةً في بغداد لأتباع الإمام أحمد بن حنبل وأوقف عليها أوقافًا كثيرةً من أملاكه.[٢]

- وقبيل ظهور المدارس النظامية؛ أي في عام ٤٥٩هـ/ ١٠٦٦م بُنيت أوُّلُ مدرسةٍ في الفقه الحنفي جوارَ مشهد الإمام أبي حنيفة، وقد أنشأها أبو سعد بن المستوفي (ت٤٩٤هـ/ ١١٠٠)،[٣] ثمَّ بنى مدرسةً أخرى لنفس المذهب في مكان آخرَ من بغداد، وثالثةً في مرو.[٤]

ثمَّ جاءت المدارسُ النظامية لتجمع بين الفقه الشافعي والمذهب الأشعري، مكمِّلةً بذلك ما بدأه ابنُ فُورَك والبيهقي. وهنا نعود للقول إنَّ المدارس النظامية وما سبقها وما تلاها من المدارس لم تكن في حقيقة الأمر مدارسَ مستقلَّةً في نهجها ومناهجها بصورةٍ عامة؛ وإنَّما كانت مدارسَ تخصُّصٍ لمذهب من المذاهب، ولم تكن عامَّةً بل كانت محكومةً بالانتماءات المذهبية لأصحابها وليس للزمان أو المكان أيُّ اعتبارٍ بتغيُّر اتجاهات هذه المدارس، وهذا ينطبق بصورةٍ خاصَّة

١ مجد الدّين أبو طَاهِر مُحَمَّد بن يَعْقُوب بن مُحَمَّد الشِّيرَازِيّ الفيروز آبادي، ولد في كازرون من نواحي شيراز عام ٧٢٩هـ/١٣٢٨م صاحب (القاموس المحيط)، سافر إلى زبيد عام ٧٩٦هـ/١٣٩٣م وذاع صيته هناك حتى ولاه أميرها القضاء فبقي هناك حتى وفاته عام ٨١٧هـ/١٤١٤م له كتاب في التفسير، وهو (تنوير المقياس في تفسير ابن عباس) و(تحفة الأبيه فيمن نسب إلى غير أبيه)، وآخر في شرح صحيح البخاري وقد ذكر طاشكبري زاده أن مصنفاته بلغة الأربعين ومن أجلها كتابه الذي بلغ ٦٠ مجلد وهو (اللامع الْمعلم العجاب الْجَامِع بَين الْمُحكم والعباب).انظر: الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية، طاشكبري زاده، ١ / ٢١ - ٢٢، معجم شعراء المدح النبوي محمد أحمد درنيقة ،٤٠٦.

٢ ابن الجوزي: المنتظم، ابن الجوزي، ١٧/ ٢٤٠.

٣ أبو سعد محمد بن منصور الخوارزمي الكاتب المستوفي، كان صدراً معظماً كثير الأموال، وكان مستوفي ديوان المملكة الملكشاهية، فيه خير وسؤدد، وكان الملوك يصدرون عن رأيه. انظر: البداية والنهاية، ابن كثير ١٢/ ١٦١.

٤ مرو من مدن خُرسان، وتسمى أيضا مرو الشاهجان نسبة لنهرين يمران بها، وإليها ينسب عبد الله بن المبارك العالم الزاهد، ومنها خرجت أسرة المروزي التي ينتمي إليها كثير من أهل العلم من أمثال أبو زيد المروزي وأبو بكر المروزي وغيرهم. انظر: مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، ابن شمائل القطيعي،٣/ ١٢٦٢، آثار البلاد وأخبار العباد، القزويني، ٤٥٧.

على مدارس نظام المُلْك التي عمَّت أرجاء العالم الإسلامي وبقيت مروِّجةً لنفس المنهج، والذي يتتبَّعُ تراجمَ شيوخ النظاميَّات يجد أنَّ الأشعرية والشافعية هما السِّمةُ البارزةُ لهؤلاء. ولم يكن للعلاقة الخاصَّة -مهما كانت متينةً- بين نظام المُلْك وبعض من كانوا على غير مذهب الأشعري أن تجعل النظام يُولِّيهم أمرَ التدريس في مدارسه مثلِ أبي يوسف القزويني المعتزلي الذي كان العلماء يهابون الجلوس معه كالإمام الغزالي؛ لما عرف عنه من سعة علمه وقوَّة حجَّتِه وبلاغة كلامه، وكان له تفسيرٌ بلغ ٥٠٠ مجلَّد، وكلُّ هذا لم يشفع له عند نظام المُلْك ليجعلَه مدرِّسًا في النظامية، وكذلك الأمرُ بالنسبة لأبي سعدٍ المستوفي والفقيهِ بهرام بن بهرام وغيرهم من الشيوخ على نحو ما يقارب أربعةَ قرونٍ من عمر النظاميات.

وهنا يُطرح السؤالُ الذي هو محورُ البحث القادم؛ لماذا المذهبُ الأشعري دون غيره من مذاهب المتكلِّمين؟ ولماذا الفقه الشافعي وليس غيرُه؟ مع أنَّ إمام المذهب محمد بن إدريس كان من أشدِّ المناظرين لأصحاب الكلام. هل لأنَّ الوزير نظام المُلْك كان ينتهج هذا المنهج وعليه أقام مدارسه؟ أم أنَّ هذا التوجهَ وُجد قبل نظام المُلْك ثمَّ فُرض عليه نتيجةً للظروف السياسية المحيطة بكلٍّ من الخلافة العبَّاسية والسلطنة السلجوقية؛ ولكونه كان وزيرا فهو محكوم بالمناخ السياسي. وما علاقة الفكر الباطني الذي كان يتمدَّد على رقعة الخلافة العبَّاسية؟ وسيأتي تبيانُ ذلك.

عصر نظام الملك وظهور المدارس النظامية

ذكر المؤرخون أنَّ أوَّل نظامية بُنيت هي نظامية بغداد عام ٤٥٩هـ/ ١٠٦٦م؛ لتكون نواةَ مشروعٍ كبير وأُولى حلقات سلسلة المدارس التي بناها في الأمصار الإسلامية، وقد سخَّر نظام الملك لبنائها كلَّ الإمكانيَّات آخذًا بعين الاعتبار أهمية المكان لما له من تأثير في الدور الذي ستلعبُه المدرسة، فقد اختار المدن التي بنى فيها مدارسَهُ بعنايةٍ مراعيًا دورها السياسي والاقتصادي والاجتماعي والعلمي، فقد"

بنى مدرسة ببغداد، ومدرسة ببلخ،[1] ومدرسة بنيسابور، ومدرسة بهراة[2]، ومدرسة بأصبهان،[3] ومدرسة بالبصرة، ومدرسة بمرو، ومدرسة بآمل طبرستان[4] ومدرسة بالموصل»..[5]

بالنظر إلى أحوال هذه المدن نجد أهمِّيَّتها السياسيَّة والفكريَّة والاجتماعيَّة، فبغداد مركز الثقَل السياسي وحاضرة الخلافة العباسية وقِبلةُ العلماء ومركز الفقهاء، وأصبَهان عاصمة السلاجقة حُماةِ السنَّة. وأمَّا المدن الأخرى فكان بعضُها مراكزَ تجمُّعٍ لنشاط الشيعة كالبصرة وطبرستان، وبعضُها الآخرُ كانت على ثغور المسلمين مثل الموصل والجزيرة. وهذه المدن رأى النظام من خلالها مراكز انطلاق لحركة الإصلاح السنِّي مستوحيًا مشروعَه هذا من قراءته لواقع الأمة، وتبصُّره في المتغيِّرات التي أدَّت بمُجمَلها إلى حالة التفكُّك الاجتماعي والمذهبي على امتداد جغرافية المسلمين، فمن صراعٍ بين أفراد البيت الواحد من الأُسر الحاكمة وسيول الدماء التي تجري بسببه، إلى أزمة الخلافات بين أتباع المذاهب الفقهية والتي تعدَّت في بعض الأحيان حدودَ الحوار والمناظرة لتصلَ إلى مرحلةٍ خطيرة بينهم، كما وقع بين الحنابلة والأشاعرة في بغداد، وما ترتب على ذلك

١ بلخ مدينة تقع في وسط خُراسان فتحت في عهد الخليفة معاوية بن أبي سفيان، وقد حظيت بعناية كبيرة من البرامكة الذين كانوا يسكنوها لما كانوا على دين المجوس ثم لما حكموها زمن الرشيد العباسي، فأقاموا فيها القصور والمخازن وجملوها وزادوا في تحصينها، وإليها ينسب الشيخ الزاهد إبراهيم بن الأدهم الذي كان ملكا عليها ثم اعتزل المُلك. انظر: آكام المرجان في ذكر المدائن المشهورة في كل مكان، المنجم، ٨٢، آثار البلاد وأخبار العباد، القزويني ١/ ٣٣٢.

٢ من مدن خُراسان، افتتحها الأحنف بن قيس في عهد الخليفة عثمان بن عفان. انظر: آثار البلاد وأخبار العباد، ١/ ٤٨١، آكام المرجان في ذكر المدائن المشهورة في كل مكان، ٧٧.

٣ أصبهان أو أصفهان وتعني بالفارسية بلد الفرسان وهي من مدن العجم، فتحها المسلمون بقيادة أبي موسى الأشعري عام ٢٣هـ/ ٦٤٣م، وفيها سكنت بعض قبائل العرب مثل بني تميم وبنو عبد قيس، وثقيف، وبنو حنيفة، ومنها ينحدر الصحابي سلمان الفارسي وكذلك أبو الفرج الأصفهاني صاحب الأغاني. انظر: الروض المعطار في خبر الأقطار، الحميري، ٤٣، البلدان، اليعقوبي، ٨٥ – ٨٦.

٤ إحدى مدن طبرستان، ويقال للتعريف آمل طبرستان، ولا يقال آمل؛ لأن هناك مدن أخرى تحمل نفس الاسم في أماكن أخرى، وهي من كبرى المراكز التجارية، وفيها الكثير من العلماء، وإليها ينتمي أبو جعفر محمد بن جرير الطبري صاحب التفسير والتاريخ. انظر: معجم البلدان، الحموي، ١/ ٥٨.

٥ طبقات الشافعية الكبرى، السبكي، ٤/ ٣١٣.

من لعن الأشاعرة على المنابر، وهذا الاستغلال السيِّئ والمشين للمنابر لم يكن جديدًا على الناس، وقد أشرنا إليه في مبحثٍ سابق، ثمَّ حالة الانتقام التي يمارسها مذهب من المذاهب العقدية حين يصيرُ رؤساؤُه من ضمن دائرة الخليفة فينتقموا من أصحاب المذاهب الأخرى، وعقد النقص عند بعض الطوائف المسلمة والمرتبطة بأحداثٍ وقعت في المراحل الأولى للتاريخ الإسلامي حيث أدَّت هذه العقد إلى قيام أصحابها بثوراتٍ ضدَّ الأغلبية الحاكمة أو ضدَّ مذاهبَ معيَّنة كما فعل القرامطة والزنوج والشيعة.

لقد رأى نظام المُلْك أمامه هذه النماذج العديدة كما رأى أنَّ العُبيديِّين في مصر قد استغلوا الأزهر في نشر دعوتهم ودراسةِ مذهبهم حتى وصل دعاتُهم إلى مختلف الأمصار، فكانت هذه المدرسة بدايةً لسلسلةٍ من المدارس أراد النظامُ من خلالها أن يُحدث تغييرًا جذريًّا في الأمَّة ليحارب العدوَّ بنفس السلاح، بعد أن تسرَّبت الباطنيَّةُ بفكرها وعقائدها في جميع أنحاء العالم الإسلامي لا بل حتى في نفوذها السياسي حيث كان للجامع الأزهر وبيت الحكمة اللذان أنشأهما العُبيديون في القاهرة في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي الدور الأكبر في نشر فكرهم وعقائدهم، كما كان للدعاة من أمثال حسن الصبَّاح وابن سنان الدور الكبير في الترويج لهذا المذهب. وكاد البساسيري أن يقضي على الخلافة العباسية تمامًا لولا نجدةُ السلاجقة للخليفة العبَّاسي؛[1] لذلك لم يكن من السهل القضاءُ على هذا الفكر ومحيُهُ بسبب تعاظم نفوذه السياسي، وتزايد دعاته الذين سخَّروا الفلسفةَ، وأسلوب الجدل والمناظرة في نشر مذهبهم؛ لذلك رأى الوزير نظامُ المُلْك أنَّ الاقتصارَ على مقاومة الشيعة الإماميَّة والإسماعيليَّة الباطنية سياسيًا لن يكتب له النجاح إلَّا إذا وازى هذه المقاومة السياسيةَ بمقاومةٍ فكرية؛ ذلك أنَّ الشيعة -إمامية كانوا أو إسماعيلية- نشطوا في هذه الفترة وما قبلها إلى الدعوة لمذهبهم بوسائلَ فكريةٍ متعددة.

وهذا النشاط الفكري ما كان ينجح في مقاومته إلا بنشاطٍ سنِّي مماثلٍ يتصدَّى

١ الكامل، ابن الأثير، ٨/ ١٥٥ - ١٦٧.

له بالحجَّة والبرهان، خاصَّةً أنَّ السلاجقة ورثوا النفوذ السياسي لبني بويه ، وهؤلاء البويهيون لم يمنعوا الشيعة الإمامية من نشر فكرهم ومذهبِهم، كما كانوا يغضُّون الطرفَ عن نشاط دعاة الإسماعيلية في العراق وخراسان، ونتج عن ذلك كلِّه تزايدُ نفوذ الشيعة فيهما، خاصَّةً بعد أن لجأ الشيعة إلى إنشاء مؤسَّساتٍ تعليمية تتولَّى الترويجَ لعقائدهم، وتعملُ على نشرها، فقد أنشأ أبو علي بن سِوار الكاتب أحدُ رجال عضد الدولة (ت٣٧٢هـ/ ٩٨٢م) دارَ كتبٍ في مدينة البصرة وأخرى في مدينة رام هرمز،[1] وجعل فيها إجراءً على من قصدهما، ولزم القراءةَ والنسخ، وكان في الأولى منهما شيخٌ يدرِّس عليه علم الكلام على مذهب المعتزلة، كما أسَّس أبو نصر سابور بن أزدشير وزير بهاء الدولة (ت٤١٦هـ/ ١٠٢٥م) دارًا للعمل في الكرخ في عام ٣٨٣هـ/ ٩٩٣م، ووقف فيها كتبًا كثيرةً بلغت عشرةَ آلافٍ وأربعمائة مجلَّدٍ في أصناف العلوم، وأسند النظر في أمرها ورعايتها إلى رجلين من العلويين يعاونُهما أحدُ القضاة. وبعد وفاة سابور آلت مراعاةُ هذه الدار إلى الشريف الرضي نقيب الطالبيِّين.[2] وكذلك اتخذ الشريفُ الرضي (ت٤٠٦هـ /١٠١٥م) الشاعرُ الإمامي المشهورُ دارًا أسماها دار العلم، وفتحها لطلَّاب العلم، وعيَّن لهم جميع ما يحتاجون إليه.

كما كان كثيرٌ من أئمَّة الشيعة الإمامية يقومون بالدعوة إلى مذهبهم ونشر عقائدهم في بيوتهم الخاصَّة، أو في مشاهدهم وأعني بها المساجدَ التي دُفن فيها أئمَّتهم -على حد قولهم لأنَّ بعضها لا يثبت- والتي عُرفت عندهم بالعتبات المقدَّسة، فقد كان الشيخ المفيد محمَّد بن محمد النعمان شيخُ الإماميَّة (ت٤١٣هـ/ ١٠٢٢م) يعقد مجلسَ نظرٍ بدار يحضره جميعُ العلماء، وكانت له منزلةٌ عند أُمراء الأطراف يُميلهم إلى مذهبه.

وأمَّا أبو جعفرٍ الطوسي محمَّد بن الحسن فقيهُ الإماميَّة (ت٤٦٠هـ/ ١٠٦٧م)، فقد فرَّ إلى النجف بعد أن هوجمت دارُه في بغداد، ونُهبت محتوياتُها في عام

١ رامهرمز مدينة من مدن خوجستان، والكلمة تتكون من مقطعين، رام وتعني بالفارسية المراد أو المقصود، وهرمز هو أحد أكاسرة الفرس وتعني مراد كسرى. انظر: معجم البلدان، الحموي، ٣/ ١٧.

٢ المنتظم، ابن الجوزي، ١٥/ ١١١.

٤٤٨هـ/ ١٠٥٦م في حملة الضغط التي تعرَّض لها الشيعة في بغداد عقب دخول السلاجقة إليها، وتمكَّن الطوسي في مقرِّه الجديد من مواصلة نشاطه العلمي والتعليمي فألَّف مجموعةً من الكتب في الفقه والحديث على مذهب الإماميَّة احتلَّت مكانًا بارزًا في الدراسات الشيعية الإمامية، كالتهذيب والاستبصار، وهما من الكتب الأربعة المعوَّل عليها عندهم والتي تحفِل بالروايات الضعيفة والموضوعة والتي لا وزن لها في الميزان العلمي الصحيح، كما أملى الطوسي على طلبته في مشهد النجف كثيرًا من الدروس جمعها في كتاب سمَّاه (الأمالي

أمَّا الشيعةُ الإسماعيلية فكانوا أساتذةَ هذا الميدان ولهم القدمُ الراسخة فيه؛ إذ حازوا قصبَ السبق في إنشاء المؤسَّسات التعليمية، وتوجيهها وِجهةً مذهبية. فقد بدأ الإسماعيليون وعبر دولتهم العُبيدية نشاطهم في هذا المجال منذ قيام دولتهم في الشمال الإفريقي وكان بداية عهدهم الذهبي مع دخولهم مصرَ وإنشاء الجامع الأزهر عام ٣٥٩هـ/ ٩٦٩م وجعلوا منه مؤسَّسة تعليمية تعنى بنشر مذهبهم في عام ٣٧٨هـ/ ٩٩٧م عندما سأل الوزير يعقوبُ بن كِلِّسَ الخليفة العزيز في صلة جماعةٍ من الفقهاء فأطلق لهم ما يكفي كلَّ واحدٍ منهم، وأمر لهم بشراء دارٍ وبنائها فبُنيت بجانب الجامع الأزهر، فإذا كان يوم الجمعة حضروا إلى الجامع وتحلَّقوا فيه بعد الصلاة إلى أن يُصلَّى العصر، وكان لهم من مال الوزير صِلةً في كلِّ سنةٍ حتى أنشأ الحاكمُ بأمر الله دار الحكمة للغرض ذاتِه في عام ٣٩٥هـ/ ١٠٠٤م وحُملت الكتبُ إليها من خزائن القصور، ومن خزائن مقرِّ الدولة الفاطميَّة، وأجرى الأرزاقَ على من رسم له بالجلوس فيها، والخدمةِ لها من فقيهٍ وغيره، وحضَرَها الناسُ على طبقاتهم فمنهم من يحضر لقراءة الكتب ومنهم من يحضر للنسخ، ومنهم من يحضر للتعلُّم، وجعل فيها ما يحتاج الناس إليه من الحبر والأقلام والورق والمحابر، هذا بالإضافة إلى الحلقات التعليمية التي كانت تُعَدُّ بعنايةٍ خاصَّةٍ في عاصمة الخلافة العُبيدية لإعداد الدعاة، وتثقيفِهم ثقافةً مذهبيَّةً واسعة قبل إرسالهم إلى البلاد الإسلامية لنشر المذهب الإسماعيلي، وكان لذلك أثرُه في رواج هذا المذهب في بعض مناطق الشرق الإسلامي؛ نتيجةً لهذه الجهود المنظَّمة المستمرَّة في نشر هذه الدعوة.

وعلى الرغم من وقوع انقسامٍ كبيرٍ بعد وفاة الخليفة المستنصر العُبيدي ٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م حيث وقع خلافٌ بين أمير الجيوش بدر الجمالي وبين الحسن بن الصبَّاح، فالأول كان يرى البيعة للمستعلي بن المستنصر، والثاني رأى أنَّ نزارًا هو الأحقُّ بها، فانقسم أتباعُ المذهب بينهما إلى إسماعيلية مستعلية مغربيَّة وإسماعيلية نزاريَّة شرقيَّة وهي التي عرفت بالدعوة الجديدة وعلى رأسها الحسن بن الصبَّاح (ت٥١٨هـ/ ١١٢٤م).[١]

وعلى الرغم من فساد مذهب الباطنية إلَّا أنَّ الحقَ يقال أنَّ دعاتِهم كانوا يُتقنون أسلوب الجدل والمناظرة والإقناع بالحجَّة، ويُلبسون الباطلَ ثوب الحق بإلقاء الشبهات حول معتقد الآخرين، ويُوقعون الناسَ في حالة تشكيك بعقائدهم قبل أن يعرض لهم هؤلاء الدعاة مذهبهم الباطني وكأنَّهم هم الفرقةُ الناجية، بأسلوبٍ فلسفيٍّ جدلي، والمشكلة أنَّ هذا الفكرَ لم ينحصر في هذين المذهبين الإمامية والإسماعيلية بل انشقَّت عنهما فِرَقٌ ومذاهبُ عدَّةٌ مثل الدروز الذين نشأوا في كنف العُبيديين وتبنَّى الحاكمُ بأمر الله دعوتَهم، وكذلك النصيرية التي نشأت في كنف الإمامية، وحتى الإسماعيلية والإمامية يعودان إلى أصل واحدٍ ولكن انقسما على إثر خلاف وقع بين كبرائهم حول الإمامة بعد جعفر الصادق (ت١٤٨هـ/ ٧٦٥م) تكون لابنه إسماعيل أو محمد، ومع مرور الزمان ازدادت تشعُّبات هذه الفرق، وما نشاهده اليوم من مذاهب تُنسب للفكر الباطني ما هي إلَّا خلافاتٌ وقعت بين زعماء الشيعة، فاستقلَّ كلُّ واحد منهم، وصار له أتباع، وكوَّن لنفسه مذهبًا، وبما أنَّ الفكرَ الفلسفي هو مرجعهم المعتمدُ فمن السهل صياغةُ الأفكار

١ الحسن بن الصبَّاح بن علي الإسماعيلي، صاحب الدعوة النزارية، ومن كبار الزنادقة ودهاة العالم، ومن أعيان الباطنية في عهد ملكشاه السلجوقي، ثم كان مقدم الإسماعيلية بأصفهان، ولد في مرو سنة (٤٢٨هـ/ ١٠٣٧م)، تتلمذ لأحمد بن غطاش تنقل بين أصفهان ومصر والجزيرة والشام وبلاد الروم، ودخل كاشغر وبلاد ما وراء النهر؛ داعيا للمستنصر، ودخل قلعة الموت، وطرد صاحبها، وضم إليها عدة قلاع، واعتمد الاغتيال السياسي وسيلة للتخلص من أعداء طائفته، وكان أول عملية اغتيال يقوم بها مع رجاله هي قتل الوزير نظام الملك، وكان الحسن عالمًا بالهندسة والحساب وعلم الكلام، وقد أجلَّه الإسماعيلية النزارية، وساروا على نهجه. انظر: الكامل، ابن الأثير،٨/ ٣٨٤، الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، ابن الطقطقي،١/ ٢٨٨، الذهبي: سير النبلاء، الذهبي، ١٩/ ٢٦٧، تاريخ الإسلام، الذهبي، ١٠/ ٦٧٣.

والمعتقدات والانتساب لإمام من الأئمة الأوائل لتكوين مذهب[١] ومن ينظر في كتاب الشهرستاني «المِلَلْ والنِّحَل» يجد الاستخدامَ العجيب للفكر الفلسفي في صياغة مذاهبهم.

كلُّ هذا جعل نظام المُلْك يبحث عن وسيلةٍ يخرج بها نظام التعليم الإسلامي عن الأسلوب التقليديّ في عرض العلوم، ويُحدث منهجًا جديدًا يجمع به بين مرونة الفقه الإسلامي، وسعة الأفق التي يتميَّز بها العلم، وأن يقتبس من المتكلِّمين أسلوبَ المناظرة والحجَّة. فكانت مدارسه هذه التي نُسبت إليه دون السلاجقة والتي جعلها شافعيَّةً خالصةً بِنَكْهَةٍ أَشْعَرِيَّةٍ، وهذا هو المذهب الذي خَبِرَهُ النظام وأخذه عن جهابذة الأشعرية والذي رأى فيه أنَّه الحلُّ الأمثل الذي يُمكنه من إصلاح المجتمع الإسلامي من جهةٍ ومحاربة الباطنية من جهةٍ أُخْرى.

لِذلِكَ استَثْمَرَ نظامُ الملك قوةَ نُفوذِهِ السياسي لِتحْقيقِ مشروعه هذا الذي كان يَعدُّ له كلَّ الإمكانيَّات المتاحة، وَشَرَعَ بِإنْشاءِ سلسلة من المدارس العلمية؛ لتخريج أجيالٍ من الفقهاء الذين يجمعون بين فقه الإمام الشافعي وأسلوبه في الجمع بين مدرستين عظيمتين في الفقه وبين أسلوب الإمام أبي الحسن الأشعري وطريقتِه في عرض العقيدة الإسلامية، وما كان قد توسَّط به بين منهجين كبيرين هما منهج الكُلَّابية ومنهج أهل السلف؛ والغايةُ أن يقوم هذا الجيل من الفقهاء بشنِّ حربٍ شعواءَ على أتباع الفكر الباطني بمختلف طوائفه والمنتشرِ بين شرق العالم الإسلامي وغربه؛ لذلك أنشأ الوزير في بداية الأمر وفي المدن الكبرى ذات الثِّقَل السياسي والعلمي مثل بغداد حاضرة الخلافة العبَّاسية، وكان نِظَام المُلْك نفسُه يحظى بدعم كبيرٍ من الخليفة العباسي والسلطان السلجوقي. وقد استفاد من هذا الدعم في تحقيق هدفه السامي، وأُنشأت جملةٌ من النظاميات في كبرى مدن العالم الإسلامي، وهي على النحو التالي:

١ كما فعل ذلك في عصرنا من أمثال حسين ميرزة مؤسس البهائية، وسليمان المرشدي مؤسس الطائفة المرشدية، وأحمد القادياني مؤسس القاديانية أو المعروفة بالأحمدية.

- **نظامية نيسابور**

بناها الوزير نظام الملك تكريمًا واحتفاءًا بإمام الحرمين عبد الملك الجويني بعد عودته من أرض الحجاز إلى نيسابور في أوائل ولاية السلطان ألب أرسلان عام ٤٦٥هـ/ ١٠٧٢م، بعد أن كان قد خرج منها عام ٤٤٥هـ/ ١٠٥٣م على إثر فتنة الوزير أبي نصرٍ الكندري الشيعي، وهذه الفتنة وقعت عام ٤٤٥هـ/ ١٠٥٣م بعد أن قام السلطان السلجوقيُّ طغرلبك بتعيين أبو نصر الكندري الشيعي وزيرًا له فقام الأخيرُ بإحداث فتنةٍ ضد الأشاعرة، وأصدر أمرًا من السلطان بالقبض على الإمام الجوينيّ والقشيريّ وجماعتهم فاضطرَّ الجويني للخروج من نيسابور مرغما مع ٤٠٠ من أصحابه وتوجَّه إلى بغداد وفيها مكث مدةً ذاع فيها صيتُه، واشتهر بين العلماء ثم انتقل إلى أرض الحرمين، حيث أمضى فيها أربع سنواتٍ ثمَّ لمَّا سمع بولاية ألب أرسلان وتولية الوزير نظام الملك وزارة السلطان عاد إلى بلده مطمئنًّا، واحتفل به النظام وأنشأ له مدرسةً عظيمةً. والراجح أنَّها بُنيت قبل نظامية بغداد التي بنيت عام ٤٥٩هـ / ١٠٦٦م والإمامُ الجويني التقى بنظام الملك في نيسابور نحو ٤٥٦هـ/ ١٠٦٣م وصرَّح له بعقيدته التي خالف بها بعضَ الشيء عقيدةَ النظامية.

وبقي الجويني متصدِّرًا للتدريس فيها مدة٢٢عامًا حتى وفاته عام ٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م وذاع صيتُ نظامية نيسابور في الأرجاء حتى أقبل عليها الطلبةُ من كل حدبٍ وصوب. وهنا ملاحظةٌ هامَّةٌ فقد ذكر ابنُ النجار في ذيل تاريخ بغداد،[١] وابنُ الأثير في الكامل وابن خلِّكان في وفيَات الأعيان،[٢] والسبكي في الطبقات[٣] أنَّ الجوينيَّ كانت مدةُ تدريسه في النظامية ثلاثون سنةً، والجويني قد خرج من نيسابور عام ٤٤٥ه/ ١٠٥٣م ومضى إلى العراق ثمَّ عاد إلى نيسابور عام ٤٥٦هـ/ ١٠٦٣م، وكانت وفاتُه فيها عام ٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م فمدَّةُ مكوثه في نيسابور بعد عودته ٢٤عامًا فمن أين جاؤوا بالثلاثين عام، وإذا سلَّمنا جدلًا بقول من ذكرناهم من

١ ١٦، / ٤٤ – ٤٥.
٢ ٣/ ١٦٨.
٣ ٥/ ١٧٦.

المؤرِّخين بأنَّها كانت ثلاثين عامٍ فهذا يعني أنَّ النظامية بُنيت نحو عام ٤٤٨هـ/ ١٠٥٦م، وهذا القول محلُّ إشكالٍ كبيرٍ من ثلاث وجوه: الأوَّل: أنَّ الجويني لم يكن في نيسابور بسبب الفتنة، فقد كان في العراق حتى ابنُ النجار نفسُه ينقل عن أبي الوفاء علي بن عقيل الفقيه الحنبلي أنَّه رأى الإمامَ الجويني في بغداد عام ٤٤٩هـ/ ١٠٥٧م، وكانت له مناظراتٌ فيها ومجالسُ علم.

أمَّا الوجه الثاني: فهو أنَّ هؤلاء المؤرِّخين قد أجمعوا أنَّ الجويني قد عاد إلى نيسابور بعد تولية السلطان ألب أرسلان، وتنصيبِ نظام الملك وزيرًا له، وقد كان هذا عام ٤٥٥هـ/ ١٠٦٣م.

والوجه الثالث: أنَّ نظام الملك خلال حقبة الأربعينيات من القرن الخامس لم يكن سوى مساعدًا عن الأمير ألب أرسلان.

- **نظاميَّة بغداد**

وهي ثاني كبرى المدارس النظامية لا بل أعظمها شأنًا وأطولها عمُرًا، والحديثُ عن نظامية بغداد يبدأ ولا ينتهي؛ لأنَّها الوحيدةُ التي أطال المؤرخون في ذكرها والحديث عن بناءها وتنظيمها وإدارتها وأوقافِها ومن درَّس فيها ودرَس، كما أنَّها الوحيدة التي بقي جزءٌ من آثارها إلى عصرنا هذا، بعد أن تقلَّص حجمها حتى صارت عبارةً عن حجرة كان يقام فيها الكتاب ثم حوَّلها تجارُ بغداد إلى مصلًّى داخل السوق بعد أن فرشوها وأوصلوا إليها الماءَ والكهرباء، وقد حظيت هذه النظامية عبر التاريخ بعنايةٍ خاصَّة فمعظم من درَّس فيها كان من كبار العلماء وفضلاء الفقهاء، من أمثال أبي إسحاق الشيرازي، وأبي نصرٍ القشيري، وأبي حامدٍ الغزالي وغيرِهم، كما أمَّها الكثيرُ من الطلبة من مختلف أرجاء العالم الإسلامي حتى وصلوا في بعض الأوقات إلى ٦٠٠٠ طالب، ومنهم على سبيل المثال: من بلاد المغرب والأندلس أبو بكر الطرطوشي، والمهدي بن تومرت.

- **نظاميَّة البصرة**

البصرةُ هي إحدى مدن العراق وأحدُ أكبر مراكز الإشعاع العلمي والثقافي

عبر تاريخ المسلمين، أنشأ فيها الوزير نظامُ المُلْك مدرسةً. ومن أبرز من تصدَّر فيها للتدريس محمَّد بن حامد بن الطيِّب الأنباري (ت٥٠٣هـ/ ١١٠٩م).

- **نظاميَّة أصبهان**

كان نظام الملك يوليها عنايةً خاصَّةً، وكان كل من يحمل القلم يغدقُ عليه بالأموال ويُقطعه الإقطاعات؛ فازدهرت العلومُ وكثر العلماء، وكانت مركزًا للإنتاج العلمي والثقافي، وقد صُنِّفت في ذكر محاسنها وعلمائِها العديدُ من الكتب ومنها كتاب أبي الشيخ الأصبهاني (ت٣٦٩هـ/ ٩٧٩م) طبقات المحدثين في أصبهان والواردين عليها، وصنفَّ ابن مهران الأصبهاني (ت٤٣٠هـ/ ١٠٣٨م) كتاب تاريخ أصبهان، وكتاب محاسن أصبهان، وجعل فيها نظام المُلْك مدرسةً على رسم الشافعية كعادته، وصارت تنافس بفقهائها وعلمائِها وطلَّابها نظاميَّتي بغدادَ ونيسابور، وإليها أحضر نظامُ المُلْك الشيخ أبا بكر محمد بن ثابت الخجندي (ت٤٨٣هـ/ ١٠٩٠م).[1]

- **نظاميَّة مرو**

أنشأ فيها نظامُ المُلْك مدرسةً نحو عام ٤٦٨هـ/ ١٠٧٥م وهو العام الذي شهد تحوُّلًا في مذهب أبي المظفَّر منصور بن السمعاني التميمي،[2] حيث ترك مذهبه الحنفيَّ الذي ظل يدرِّس فيه ثلاثون عاماً ثمَّ بعد لقائه بالوزير نظام المُلْك في طوس تحوَّل عن مذهبه، وانتقل إلى الشافعي، وبنى له النظام مدرسةً في مرو، وعيَّنه عليها وعلى أوقافها، وظلَّ يدرّس فيها الفقه الشافعي حتى وفاته عام ٤٨٩هـ/

١ أبو بكر محمد بن ثابت بن الحسن الخجندي، أصله من خجند بلدة كبيرة على نهر سيحون، عقدت له المجالس في نيسابور، وكثر عنده طلاب العلم ثم قدم به نظام الملك إلى أصبهان وولاه مدرستها وأوقافها وبقي فيها حتى وفاته انظر: المنتخب من كتاب السياق لتاريخ نيسابور، أبو اسحاق الصّريفينيّ،٧١، ابن النجار: ذيل تاريخ بغداد، ابن النجار، ٩/ ٢٠٦، طبقات الشافعية الكبرى، السبكي، ٤/ ١٢٣-١٢٤.

٢ أبو المظفر منصور بن محمد بن عَبْد الجبّار بْن أحمد بْن محمد بْن جعفر بن أحمد بن عبد الجبّار بن الفضل بن الربيع بن مسلم بن عبد الله، الإمام أبو المظفّر السَّمعانيّ التّميميّ، درس فقه أبي حنيفة على والده أبو منصور، وأخذ العلم عن شيوخ نيسابور وبغداد، وهو جد الحافظ الكبير أبو سعد السمعاني صاحب كتاب الأنساب، صنَّف في التّفسير، والفقه، والأصول، والحديث. انظر: تاريخ الإسلام، الذهبي، ١٠/ ٦٤١-٦٤٢.

١٠٩٥م.[١]

- **نظاميَّة هراة**

جاء ذكر نظامية هراةَ زمن نظام المُلْك في قصة الفتنة التي وقعت عام ٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م بين أحد الفلاسفة والشيخ عبد الله بن الأنصاري (ت٤٨١هـ/ ١٠٨٨م)،[٢] حيث أقفلت النظاميةُ، وتوقَّف فيها التدريسُ بسبب الفتنة.[٣]

- **نظاميَّة بلخ**

أنشأ فيها النظام مدرستَه، وأجرى عليها الجرايات الكثيرة، وولَّى أمر التدريس فيها للفقيه الشافعي عبد الله بن طاهر بن محمد الشهفور (ت٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م).[٤]

- **نظاميَّة آمل طبرستان**

أنشأ الوزير نظام المُلْك مدرسةً للشافعية، ونظرًا لأهميَّتها التجارية والعلمية فقد تولَّى التدريس فيها رئيس آمل نفسِها أبو الفوارس هبةُ الله بن سعد الطبري (ت٥٤٧هـ/ ١١٥٢م)،[٥] وكان عالما فقيهًا في المذهب.[٦]

- **نظاميَّة جزيرة ابن عمر**[٧]

أنشأ فيها النظام مدرسةً للشافعية، والقول بأنَّ النظام قد بنى فيها مدرسةَ مسند

١ طبقات الشافعية الكبرى، السبكي، ٥، / ٣٣٥ - ٣٣٦.

٢ أبو إسماعيل عبد الله بن محمد بن علي الأنصاري الحنبلي، الفقيه اللغوي المحدث صنف كتاب منازل السالكين. انظر: طبقات النسابين، بكر بن عبد الله أبو زيد، ١٠٣.

٣ وقعت هذه الفتنة عندما تكلم أحد الفلاسفة في رمضان من تلك السنة في هراة بكلام غضب له الشيخ الفقيه عبد الله بن الأنصاري وانقسم الناس في القضية فريقين، واقتتل الطرفان ووقعت بينهما الفتنة، وسالت لها الدماء حتى أرسل نظام الملك أمرا بالقبض على الشيخ الأنصاري وأخرجه من هراة ثم لما هدأت الفتنة، وانطفأت أعاده إلى هراة. انظر: المنتظم، ابن الجوزي، ١٦، / ٢٧٨ - ٢٧٩.

٤ عبد الله بن طاهر بن محمد الشهفور أبو القاسم التّميميّ، أصله من إسفرايين، ونزل بلخ، وسكن فيها لما ولاه النظام التدريس في النظامية وظل فيها حتى وفاته. انظر: تاريخ الإسلام، الذهبي، ١٠/ ٥٩٩.

٥ تاريخ الإسلام، الذهبي، ١١/ ٩٢٠.

٦ طبقات الشافعية الكبرى، السبكي، ٧/ ٣٢٦.

٧ بلدة تقع فوق الموصل يحيط بها نهر دجلة من ثلاث جهات. انظر: الحموي: معجم البلدان، الحموي، ٢/ ١٦٠ - ١٦١.

لابن الأثير الذي قال واصفًا انتشار هذه المدارس: «ومدارس نظام المُلك في العالم مشهورةٌ لم تخل بلدٌ من شيءٍ منها حتى جزيرةُ ابن عمر، والتي هي في زاويةٍ من الأرض لا يُؤتَ لها، بُنيت فيها مدرسةٌ كبيرةٌ حسنة».[1] وقولُ ابن الأثير معتمَدٌ لأنَّ أصله من جزيرة ابن عمر، فقد نشأ فيها مع أخويه مجد الدين وضياء الدين فالعهد بها قريبٌ. ومن علمائها رئيسُها وعالمُها عمر بن محمد البزري، وأبو القاسم عمر بن محمد بن عكرمة بن البزري الجزري (ت٥٦٠هـ/ ١١٦٤م).[2]

- **نظاميَّة ظاخر**

أنشأ فيها نظام المُلْك مدرسةً للشافعية، وأوقف لها أوقافًا كثيرة منها أنَّه جعل لكلِّ فقيه رأسَ غنمٍ في كلِّ شهر مع طعامٍ لها، وجعل فيها مكتبةً عظيمة كان المترجمون فيها يقومون بترجمة الكتب من العربية إلى اللغة اللَّكزانية.[3]

ومع نجاح التجربة أراد الوزير نظامُ المُلْك أن يعمَّ مشروعُه هذا أرجاءَ الأمَّة الإسلامية حيث ما وصل إليه سلطانه، وحيثما لم يصل إليه أيضًا، حتى وصلت مدارسه أعماقَ البوادي حيث ينفصل سكانُ هذه الأماكن عن مجتمعات المدن الكبرى سواءٌ في حياتهم الاجتماعية، وما يتبعه من عاداتٍ أو حتى في طبيعة تفكيرهم ونمط حياتهم؛ وهذا يدل على الاهتمام الكبير بأصحاب العقول، والبحث عنهم في البلاد لتعليم أهلها، ونشرِ الدين فيها؛ لكي لا تُترك لأصحاب الديانات الأخرى الذين يستغلّون جهل هؤلاء وبساطةَ تفكيرهم فيعرضون عليهم عقائدهم المزيفة مع شيءٍ من متاع حياة، فيغرِّر بهم؛ وبذلك يكثر سوادُهم في أرجاء الأمَّة الإسلامية؛ لذلك تنبه الوزير لهذا الأمر فعمَّمَ مدارسَه في كل الأماكن ، وهذا الانتشار للمدارس تميَّز بأمرين اثنين: الأمرُ الأوَّل: أنَّها شكَّلت شبكة اتصال ثقافيٍّ بين مدن العالم الإسلامي بدءًا من سمرقند ومدن الشرق الإسلامي مرورًا بوسطه كبغداد ودمشق والحجاز إلى بلاد المغرب والأندلس.

١ الباهر في الدولة الأتابكية، ابن الأثير، ٩، الروضتين، أبو شامة، ج١، ص٩٨.

٢ معجم البلدان، الحموي، ٢/ ١٣٨.

٣ القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد، القزويني، ٦٠٢.

أمَّا الأمر الثاني فوحدةُ المنهج في الفقه والعقيدة، حيث تبنَّت النظامياتُ فقه الإمام الشافعي دون غيره، وقد ساعد هذا في الإكثار من التآليف في شرح هذا المذهب على يد علماءَ جهابذةٍ تبنَّوا عقيدة الإمام أبي الحسن الأشعري، وإن خالفه بعضُ العلماء في أجزاءٍ منها إلَّا أنَّها بقيت السِّمة العامة التي جمعت كل هذه المدارس التي أنشأها الوزير نظام المُلْك في حياته وتابعَ شؤونَها، وأجرى عليها الجرايات وهي تتشارك في أمورٍ، وتتفاوت في أمور أخرى، فمثلًا من الناحية التنظيمية كانت المدارسُ موحَّدةً في المنهج فهي موقوفةٌ على أصحاب الشافعي أصلًا وفرعًا، كما نصَّ على ذلك نظام الملك في وقفيَّة النظاميات، وعقيدتُها هي عقيدة الإمام أبو الحسن الأشعري (ت٣٢٤هـ/ ٩٣٥م) وهي موحَّدةٌ أيضًا في أقسامها ووظائفها الإدارية. وأمَّا تباينها فيما بينها فيكون في هندسة بنائها وجمالِه، وفي حجم أوقاف كل واحدةٍ منها، وما يجري عليها من الأرزاق، وبحسب وصف المؤرِّخين فإنَّ نظامية بغداد فاقت غيرَها من المدارس في أوقافها وأعداد طلَّابها، وكذلك في أهميَّتها، وأثرها العلمي والثقافي؛ لذلك ستكون نظامية بغداد النموذج المعتمد في هذا البحث للحديث عن إدارة النظاميات مع ذكر التباين فيما بينها.

وقد أمر نظام المُلْك بتشييدها في ذو الحجة من عام ٤٥٧هـ/ ١٠٦٤م وتمَّ افتتاحُها في ذو القعدة عام ٤٥٩هـ/ ١٠٦٦م، وأوكل إلى أبي سعيد محمد بن أحمد النيسابوري مهمَّةَ بنائها،[١] فأظهر أبو سعيد عبقريَّتَه في تخطيطها، وتقسيمِ هيكلها على نحوٍ جعلها تفوقُ غيرَها في جمالها وتنظيمها وتقسيماتها وموقعها، أمَّا الموقعُ فكانت في وسط سوق الثلاثاء على مقربة من دار الخلافة من جهة الشمال وبينهما سوق اليمنجية،[٢] وجُعلت على أرضٍ مستطيلة الشكل كانت عليها دار مؤنس الخادم (ت٣٧٩هـ/ ٩٨٩م)،[٣] ويحدُّها من الشرق سوق الجوخجية،[٤] ومن الغرب سوق المصبغة، ومن جهة الجنوب سوقٌ يبدأ من دجلة من مقهى يعرف

١ ابن الجوزي: المنتظم، ج١٦، ص٩١-١٠٢.

٢ اليمنجية سوق للأحذية. انظر: أسواق بغداد عبر التاريخ، خالد سكماني، ٧٣.

٣ مؤنس الخادم المقتدري المعروف بالمظفر المعتضدي، وكان خادم لدى الخليفة العباسي المعتضد، وقد أوصلته شجاعته وفروسيته إلى منصب الأمير، وظل على ذلك عقود عدة، مات مقتولًا سنة. الكامل ابن الأثير.

٤ الجوخجية سوق للأقمشة المستوردة والحرير والصوف، انظر: أسواق بغداد عبر التاريخ، خالد سكماني ٧٣.

بالشطمار.[1]

الشكل البنيوي للمدرسة

كانت المدرسةُ تشغل مساحة مستطيلةً حدودُها الخارجية ٣٨ مترًا من الشمال إلى الجنوب و٢٩مترًا من الشرق إلى الغرب تنقسم هذه المساحة إلى (بيت للصلاة)'' طولُ جدار القبلة فيه ١٥ مترًا , بعرض ٤.٥ أمتار يشرف على فناء فسيح مستطيل طولُه ١٨مترًا، وعرضُه ١٥مترًا, يحيط به من جانبيه الشرقي والغربي قاعاتٌ وغرف للطلَّاب أمَّا آخر الغرف فكان يتوسَّطُها المدخلُ وتتقدَّمه سقيفةٌ كما كان يضمُّ على جانبي هذا المدخل غرفًا صغيرةً وقاعات أخرى، وكانت المدرسةُ مرفوعة الجدران مشيَّدةَ الأركان, قد عُقد في جوانبها طاقاتٌ مستديرةُ الشكل تنتهي إلى البنيان المشيَّد, وقد فُرشت ساحاتُها بالمرمر، وسورُها مؤزَّرٌ بمثله.[2]

أقسام هيكل المدرسة

أ- الإيوان

قاعةُ الدرس في المدرسة، ويجلس فيه الطلَّاب، وفي أوَّله كرسيٌّ يجلس عليه الأستاذ، ويعرف هذا الكرسي بالسُّدَّة.

ب- مكتبة النظامية أو خزانة الكتب

حرص الوزير نظام المُلْك على ضرورة وجود مكتبةٍ داخل كلِّ مدرسة، وأن يُحضر إليها ما يُمكن جلبُه من الكتب في شتَّى العلوم؛ كي تكون مراجع للطلبة، وأن تجهَّز المكتبةُ بكل ما يلزم القارئُ من الأقلام والحبر والورق، كما وُجد فيها النسَّاخ، وموظَّفون يأتون بالكتب للقارئ، وثبتٌ معتمَدٌ لأسماء الكتب في المكتبة كما ذكر ابن الجوزي.

---

١ مقهى تقام فيه حفلات الزفاف، كما يجتمع فيه التجار لعقد صفقات البيع والشراء، ويقع على شط نهر دجلة. انظر: مقاهي بغداد القديمة، عبد الرحمن لمعان مجلة الموروث، العدد ٢٤، ٨٤.

٢ المدرسة: نشأتها وتطور عمارتها عبد الله كامل موسى، مجلة الوعي الإسلامي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت، رقم العدد ٥٣٢، ٢٠١٠م، ١٧.

ج- سكن الطلبة

تميَّزت النظاميَّات بوجود سكن داخليٍّ للطلاب، وربَّما كان لكلِّ طالبٍ غرفة خاصَّةٌ به كما يُفهم من الرواية التي ذكرها غيرُ واحدٍ من المؤرِّخين، وهي أن طالبًا يدعى يعقوب الخطَّاط (ت٥٤٧هـ/ ١١٥٢م) حدث أن جاءه في غرفته مسؤولُ السكن الداخلي في النظامية، وختم على غرفته بعد وفاته.[١] وهذا يعني أنَّ كلَّ طالب له غرفتُه الخاصَّة مستقلًّا عن زملائه، وهذه ميزة حسنةٌ تجعل الطالب متفرِّغًا لأمور دراسته بعيدًا عن أجواء الخلطة التي من الممكن أن تشغلَه عن الهدف الذي من أجله ترك أهلَه وبلدَه وارتحل إلى النظامية، كما تبعده عن اللهو ومضيعة الوقت في أحاديثَ جانبية، والرواية تشير أيضًا إلى أنَّ الغرفة تبقى مختومٌ عليها بعيدةٌ عن أيِّ استخدام آخر حتى يأتي مَن يسكنُها من الطلَّاب. كما تشير إلى وجود موظَّفٍ خاصٍّ مسؤول عن غرف السكن كما أنَّ هذه الرواية تمنح شعورًا بمدى اهتمام واقف المدرسة؛ أي النظام بتهيئة الأجواء المريحة التي تساعد الطالبَ على الدراسة والتحصيل. وليس هذا فقط؛ بل أجرى له الجرايات التي تريح بال الطالب، وتكفيه همَّ معاشِه، فأمَّن له المأكلَ والمشرب والملبسَ بالإضافة إلى المسكن، وتزويده بلوازم الدراسة كالمحابر والورق وغيرِها، وما على الطالب فقط إلَّا أن ينكبَّ على الدراسة وتحصيل ما أمكنه من العلوم التي تهيؤه لأن يكون فقيهًا لا في علم الفقه فحسب؛ بل في علوم اللغة والتفسير والحديث، وليس السكنُ للطلبة فقط بل أشارت المصادر إلى أنَّ مدرسي النظاميات كانوا يقطنون ضمنَ السكن الداخلي التابع للمدرسة كما جاء في ترجمة عمر بن مكي الخوزي الفقيه الشافعي الذي درّس في نظامية بغدادَ علمَ الكلام والخلاف والفقه والأصول،[٢] وكذلك الفقيه الشافعي أبو محمد حمد بن حميد (ت٦٣٢هـ/ ١٢٣٤م) حيث أقام في نظامية بغداد وتفقَّه فيها ثمَّ عاد إلى بلده دينور وفيها كانت وفاته.[٣]

وفي ترجمة أبي المجد فخر أور بن شهبور بن أبي هاشم (ت٥٢٩هـ/ ١١٣٤م)

١ المنتظم، ابن الجوزي، ١٨/ ٨٣، الكامل في التاريخ، ابن الأثير ٩/ ١٩٨.

٢ المدرسة: نشأتها وتطور عمارتها عبد الله كامل موسى عبده، ١٧

٣ ابن كثير: البداية والنهاية، ابن كثير، ١٣/ ١٦٧.

يَظهر جليًّا أنَّ السكن الداخلي للنظاميات لم يكن فقط في بغداد، ولكن على ما يبدو هي سمةُ كلِّ المدارس النظامية فأبو المجد هذا كان قد نزل نظامية مرو ودرَّس فيها الفقه والأصول كما ذكر عنه أبو سعد السمعاني، وأنَّه قد قرأ عليه كتاب حلية الأولياء لأبي نُعيم الأصفهاني،[1] وكذلك الشاعر أبو إسحاق إبراهيم بن يحيى الكلبي الغزِّي (ت٥٢٤هـ/ ١١٢٩م) الذي أقام فيها مدَّةً ثمَّ ارتحل منها إلى خراسان.[2]

سلوك الطالب في السكن الداخلي

كان للسكن الداخلي التابع للنظاميات آدابٌ وضوابطُ تحمل الطالب على احترام شعور الآخر فمثلا أن يقصِد في مشيه ولا يصدر ضجيجًا يُقلق راحة الآخرين في حال صعوده إلى الطوابق العليا، وأن يُقلِّل من الخروج والدخول، وفتحِ الباب وإغلاقه باستمرار، وأن لا يمارس أيَّ عادةٍ سيئة يُمكن أن يتضايق منها الآخرون.[3] وهذا يعني أنَّ الطالب متابَعٌ حتى في مسكنه، ومراقَبٌ في تصرُّفاته، فالعمليَّة إذن تربيةٌ أخلاقيةٌ وسلوكيةٌ ونفسية إلى جانب نهْلِ العلم الشرعي بكافَّة فروعه.

د- العناية الطبِّية

تميَّزت المدارسُ النظامية بأنَّها مؤسساتٌ علميَّةٌ متكاملة في هيكلها الإداري والتنظيمي فقد كان يوجد فيها عياداتٌ طبِّيةٌ تعتني بصحة وسلامة المنتسبين للمدرسة سواءٌ من الطلاب أو موظفي الإدارة أو أعضاء الهيئة التدريسية فقد جاء في ترجمة أمين الدولة أبي الحسن هبة الله بن صاعد المعروف بابن التلميذ النصراني الطبيب (ت٥٦٠هـ/ ١١٦٤م)[4] أنَّه كان طبيبًا في نظامية بغدادَ وكان يقوم

١ السمعاني: التحبير في المعجم الكبير، السمعاني، دار الأوقاف بغداد، ١٣٩٥هـ. ص٩٩.

٢ مرآة الجنان وعبرة اليقظان، اليافعي، ٣/ ١٧٦.

٣ ابن جماعة: تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم، ابن جماعة، ٢٦٦، ٢٦٩، ٢٧٣.

٤ رئيس النصارى في بغداد وقسيسهم، أخذ علم الطب عن شيخه أبا الحسن هبة الله بن سعيد، له تصانيف في الطب منها الأقراباذين، وحواشي على كليات الطب لابن سينا، وكان طبيبا لخلفاء بني العباس أيام المستضيء والمقتفي، ومن مجالسيهم الدائمين عاش نحو ٩٤ عام. انظر: معجم الأدباء، الحموي، ٦/ ٢٧٧٢ – ابن خلكان:

على مداواة من يمرض من قاطني المدرسة خاصَّة.

ه- مصلَّى المدرسة

كان مصلَّى المدرسة من الأساسيات التي تميَّزت بها النظاميات وغيرُها من مدارس العالم الإسلامي، ممَّا يدلُّ على أنَّ من سمات العمارة العلمية والثقافية الإسلامية وجودُ مسجد في داخلها؛ تقديسًا لمكانته، ولعظمة الشعيرة التي تؤدَّى فيه وهي عمادُ الدين كلِّه، ومصلَّى النظامية كان عامًّا ليس للمدرسة فقط بل لمن يأتيه من الخارج للصلاة، وله إمامٌ راتب يؤمُّ الناس في صلاتهم، وقيِّم يعتني به.

إدارة المدرسة

إنَّ التقسيم الهيكلي والتنظيمي الذي عرضناه للمدرسة النظامية لا شك أنَّه يحتاج لكادرٍ إداري يشرف على سير العملية التعليمية والتنظيمية بحيث يتحقَّقُ الانضباطُ التعليمي والسلوكي لدى الطلاب، ولا بد من وجود لائحةٍ أساسيَّةٍ تمثِّل النظام الداخلي للمدرسة عموما؛ لذلك أوجد نظام المُلْك من خلال خبرته الطويلة في العمل الإداري إدارةً متكاملةَ الكوادر تشرف على هذه المدارس وعلى رأس هذه الإدارة:

١- **ناظر المدرسة**: وتتلخَّص مهمَّةُ هذا الناظر بما يلي: متابعةِ سكن الطلَّاب الداخلي وما يلزمه من تأمين وسائل الراحة والأمان لهم، والإشرافِ على توزيع مخصَّصات الطلَّاب المحدَّدة لهم في وقف المدرسة، وتوزيعِ ساعات العمل للموظفين الإداريين وأعضاء الهيئة التدريسية، وتحديدِ مواضيع المنهاج المرادِ إعطاؤُه في المدرسة، وضبط السجلات الخاصة بالمدرسة، وقد أوكل نظام المُلْك هذه الوظيفة لابنه أحمد المعروف بأبي نصرٍ (ت٥٤٤هـ/ ١١٤٩م)[١] وبقي في منصبه حتى تولَّى الوزارة لدى السلطان السلجوقي محمد بن ملكشاه، فأوكل

وفيات الأعيان، ابن خلكان، ٦/ ٦٩ - ٧٦.

١ أبو نصر أحمد بن الحسن بن إسحاق الطوسي، ولاه أبوه نظام الملك منصب الناظر لنظامية بغداد ثم تولى وزارة السلطان محمد بن ملكشاه عام ٥٠٠هـ/١١٠٦م ثم ولاه الخليفة العباسي المسترشد الوزارة عنده ثم عزله، ولزم بيته حتى وفاته. انظر: الوافي بالوفيات، الصفدي، ٦/ ١٩٨.

مهمَّة النظارة في المدرسة لصاحبه أبي المحاسن الحسن بن سعد الخونجندي (ت٥٧٥هـ/ ١١٧٩م).[١]

وكان من جملة من حظي بهذا المنصب محمد بن عبد اللطيف الخجندي (ت٥٩٢هـ/ ١١٩٥م) وكان الخليفة العباسي قد أوكل له هذه الوظيفةَ وظلَّ فيها حتى وفاته،[٢] ومنهم أيضًا محمد بن سعيد الواسطي (ت٦٣٧هـ/ ١٢٣٩م).[٣]

٢- خازن المكتبة؛ أي أمين المكتبة

كُلِّف أمينُ مكتبة المدرسة النظامية بالإشراف العام على كلِّ ما يتعلَّق بشؤون المكتبة من تنظيم فهرس الكتب ومراجعته لتسجيل كلِّ ما يضاف من كتبٍ جديدة ثمَّ متابعةِ القرَّاء، والإشرافِ على تسليم الكتب واستلامها، وترتيبِها في مواضعها، وتزويدِ القارئ بما يلزمه من الورق والأقلام. ولا يتولى هذا المنصب الكبير إلَّا من كان ذو علمٍ ومعرفةٍ بفنون الكتب وعلومها وبعلم فهرسة المكتبات، حتى إنَّ بعضهم كان من أصحاب التصانيف في العلوم التي تخصَّصوا بها مثلَ أبي يوسفَ يعقوب بن سليمان الاسفراييني (ت٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م)،[٤] وأبي زكريَّا يحيى بن علي التبريزي النحوي اللغوي الأديب (ت٥٠٢هـ/ ١١٠٨م) والذي تولَّى التدريس في نظامية بغداد ثمَّ تسلَّم خزانة كتبها.[٥]

---

١ الحسن بن سعد بن الحسن الخونجندي أبو المحاسن صاحب أبو نصر ابن الوزير نظام الملك، ناب عن صاحبه في نظارة نظامية بغداد مدة طويلة. انظر: طبقات الشافعية، السبكي، ٧/ ٦٠.

٢ مُحَمَّد بْن عَبْد اللَّطيف بْن أَبِي بَكْر مُحَمَّد بْن عَبْد اللَّطيف بْن مُحَمَّد بْن ثابت بْن الْحَسَن أبو بكر الفقيه الشافعي الملقب بصدر الدين من أسرة الخونجندي العلمية المشهورة، عرف بصدر الدين كما كان يلقب به آباءه من قبل، تولى نظامية بغداد، وحين عاد إلى أصبهان قتله واليها فلك الدين سُنقر الطويل عام ٥٩٢هـ. انظر: تاريخ الإسلام، الذهبي، ١٢/ ٩٨٤.

٣ محمد بن سعيد بن يحيى بن علي بن الحجاج بن محمد الدبيثي أبو عبد الله الوسطي الفقيه الشافعي، أخذ عنه ابن النجار وابن نقطة وغيرهم، له مصنف في تاريخ واسط، حتى قال عنه تلميذه ابن النجار صاحب الذيل على تاريخ بغداد للخطيب: هُوَ أحد الْحفاظ المكثرين مَا رَأَتْ عَيْنَايَ مثله فِي حفظ التواريخ وَالسير وَأَيَّام النَّاس. طبقات الشافعية الكبرى، السبكي، ٨/ ٦٢، ابن النجار: ذيل تاريخ بغداد، ابن النجار، ٢١/ ١٣.

٤ تاريخ الإسلام، الذهبي، ١٠/ ٦٢٢.

٥ ابن عساكر: تاريخ دمشق، ابن عساكر، ٢/ ٣٢٠.

وإلى جانب خازن المكتبة كان هنالك المترجمون وهم الذين يترجمون الكتب القادمة للمكتبة إلى اللغة العربية حتى يسهلَ الاطِّلاعُ على علوم الشعوب غير العربية كالفرس واليونان، كما كان مع الخازن أيضًا النسَّاخ الذين يقومون بنسخ الكتب بحسب ما يطلب رُوَّاد المكتبة، وكان معه أيضًا ضمن كادر المكتبة المناولون ومهمَّتهُم إرشادُ القارئ إلى الكتب التي يريد قراءتها.

٣- المرتب أو المدير المالي

ومهمَّته تحديدُ رواتبِ الموظَّفين وتسليمِهم إيَّاها، وتوزيعِ المعونات المالية على الطلبة وفق نصِّ الوقفيَّة التي كتبها الوزير نظام المُلْك، وممَّن تولَّى هذا المنصب أبو إسماعيل الخليل بن عبد الغفار السهروردي (ت٥٠٩هـ/ ١١١٥م)، وكذلك أبو طاهر إبراهيم بن شيبان النفيلي (ت٥٣٩هـ/ ١١٤٤م).

ومن الموظفين أيضًا: كاتبُ المدرسة أو أمين السر في لغة عصرنا، وهو المسؤولُ المباشر عن سجلَّات الطلبة.

أوقاف النظاميات

لا شك أنَّ مدارسَ بحجم النظاميات من حيث تنظيمُها الإداري وكوادرُها وعظمةُ بنيانها وبعدد طلبتها وعظمة مدرسيها، والمدةُ الزمنية التي استمرَّت بها تخرَّج أجيالًا بحجم الغزالي،[١] والرازي،[٢] والطرطوشي،[٣] وابن تومرت،[٤] والشهرزوري،[٥] والعمادِ الكاتب، وابنِ شداد، وابن عساكر، والسمعاني، ونورِ الدين،

١ مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن أَحْمد الطوسي الإمَام أبو حامد الغزالي.

٢ محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي البكري، ٥٤٤هـ ٦٠٦هـ صاحب التفسير مفتاح الغيب.

٣ هامش محمد بن الوليد بن محمد بن خلف بن سليمان بن أيوب الفهري بن رندقة الطرطوشي أبو بكر صاحب كتاب سراج الملوك، انظر بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس.

٤ محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن هود بن خالد بن تمام بن عدنان بن صفوان بن سفيان بن جابر بن يحيى بن عطاء بن رباح بن يسار بن العباس بن محمد بن الحسن بن علي بن أبي طالب، مدعي المهدية مؤسس دولة الموحدين في المغرب ومن أصحاب الغزالي والطرطوشي، أصله من سوس في أقصى المغرب. انظر: وفيات الأعيان، ابن خلكان، ٥، ٤٦.

٥ كمال الدين مُحَمَّد بن عبد الله بن الْقَاسِم بن المظفر بن عَليّ أَبُو الْفضل بن أبي مُحَمَّد الشهرزوري الْموصِلِي

وصلاحِ الدين وغيرِهم كثيرٌ من العلماء الذين ما نزال نعيش على درر مؤلَّفاتهم في الفقه والتفسير والحديث والأدب واللغة وغيرِ ذلك من صنوف العلم. كلُّ هذا لا بدَّ له من مواردَ تكون بمثابة العمود الفقري لهذه المدارس، وهذا ما فعله الوزير نظامُ المُلْك حين أوقف لكلِّ مدرسةٍ أقامها في مدينة من المدن التي سبق ذكرُها أوقافٌ كثيرة تتمثَّل في وقف الضِّياع والأسواق والحمامات، وكلِّ ما يُمكن أن يدرَّ نفعًا سواءٌ عينيًّا كان أو ماليًّا. وقد ذكر صاحب سراج الملوك روايةً تشير إلى حجم الإنفاق الضخم الذي كان يخصِّصه النظام لمدارسه، حيث ذكر أنَّ أُناسًا من حاشية السلطان ملكشاه أوشوا إليه بأنَّ النظام ينفق ما قدره ٦٠٠٠٠٠ دينار على أشياء لا تنفع ملكَ السلطان، ولو أنَّها أُنفقت على جيوشه لنُصبت رايةُ السلطان في القسطنطينية،[1] وهذا يعني أنَّ ما كان ينفقه النظام على عملية التعليم في المدارس ما تُجهَّز به الجيوشُ للغزو. فليست الجيوشُ مَن تحمي الأرضَ والعرض بل الجيوش أيضًا مَن تحمي العقيدةَ والفكر والثقافةَ والتاريخ. والرقم الذي ذكره الطرطوشي ليس مبالغًا فيه إذا ما نظرنا لحجم الطاقة البشرية التي تستوعبها المدارس النظامية سواءٌ من الكوادر الإدارية العاملة أو من الطلاب الذين يزدادون كلَّ عام، فقد ذكر

قَاضِي الْقُضَاة، تولى القضاء في الموصل، وكان رسولا لصاحبها لدى الخليفة العباسي، ثم قدم دمشق وولاه السلطان نور الدين زنكي قضاء دمشق، له أوقاف كثيرة منها مدرسة في الموصل وأخرى في ونصيبين. انظر: السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، السبكي، ٦/ ١٢٠-١٢١.

١ لكن السلطان ملكشاه يعرف قدر النظام وأمانته وحرصه على خزينة المملكة؛ لذلك استوضح منه الأمر فكان بينهما هذا الحوار: "يا أبت بلغني أنك تخرج من بيوت الأموال كل سنة ستمائة ألف دينار إلى من لا ينفعنا ولا يغني عنا. فبكى نظام الملك وقال: يا بني أنا شيخ أعجمي لو نودي علي فيمن يزيد لم أحفظ خمسة دنانير، وأنت غلام تركي لو نودي عليك عساك تحفظ ثلاثين دينارًا وأنت مشتغل بلذَّاتك ومنهمك في شهواتك، وأكثر ما يصعد إلى الله معاصيك دون طاعتك، وجيوشك الذين تعدهم للنوائب إذا احتشدوا كافحوا عنك بسيوف طولها ذراعان وقوس لا ينتهي مدى مرماه ثلاثمائة ذراع، وهم مع ذلك مستغرقون في المعاصي والخمور والملاهي والمزمار والطنبور، وأنا أقمت لك جيشًا يسمَّى جيش الليل إذا نامت جيوشك ليلًا قامت جيوش الليل على أقدامهم صفوفًا بين يدي ربهم، فأرسلوا دموعهم وأطلقوا بالدعاء ألسنتهم، ومدُّوا إلى الله أكفهم بالدعاء لك ولجيوشك فأنت وجيوشك في خفارتهم تعيشون وبدعائهم تثبتون وببركتهم تمطرون وترزقون، تخرق سهامهم إلى السماء السابعة بالدعاء والتضرُّع. فبكى أبو الفتح الملك بكاءً شديدًا ثم قال يا أبت شاباش يا أبت شاباش أكثر لي من هذا الجيش".

انظر: أبو بكر سراج الملوك، الطرطوشي، ١٢٨.

شاباش كلمة فارسية تعني أحسنت مرحى. انظر: تكملة المعاجم العربية، رينهارت بيتر آن دُوزِي ٦/ ٢٢١.

أنَّ نظامية بغداد بلغ عدد طلَّابها نحو ٦٠٠٠ طالب لذلك غدت ملتقى لطلاب العلم فقيرِهم وغنيِّهم،[١] وفي ترجمة الإمام الغزالي أنَّه جلس بين يديه في نظامية بغداد ٣٠٠ طالب، وكان مجلس الجويني في نظامية نيسابور يقعد فيه ما يزيد عن ٣٠٠ بين طالب وفقيه.

لم يكن نظامُ الملك وحدَه من يحمل عبءَ الإنفاق على النظاميات بل تعدَّدت مواردُها فمثلًا ما كان يجودُ به الأثرياء من الهدايا والأعطيات، وما كان يقدِّمه الخليفةُ نفسُه وأمراؤه إلى جانب أوقاف الكتب على خزانة النظامية من قِبَل العلماء والفقهاء، ولولا ذلك لما استطاعت النظاميات أن تستمرَّ لقرونٍ عدَّةٍ بعد وفاة النظام.[٢] ثمَّ إنَّ النظام أكَّد في نصِّ وقفيَّته للنظامية أنَّها موقوفةٌ على أصحاب الشافعيِّ أصلًا وفرعًا فكان من الطبيعي أن يسعى علماء الأشاعرة وفقهاء الشافعية لجلب الأوقاف والأعطيات لها من أجل استمرارها حتى لا تصير إلى ما صار غيرُها من المدارس التي تعطَّلت وزالت لقلَّة الإمكانيات، أو سوء إدارة أوقافها كحال المدرسة المستنصريَّة.

ومن الأوقاف التي ذُكرت للنظاميات ما ذكره الطرطوشي أنَّه رأى لنظامية بغداد أسواقًا وضياعًا وحماماتٍ وخاناتٍ،[٣] كما عبَّر الطرطوشي عن المدى التي بلغته أعطياتُ الوزير بقوله:« كان الذي مهَّد له ذلك بإذن الله تعالى وتوفيقه أنَّه أقبل بكليَّته على مراعاة حمَلَة الدين؛ فبنى دور العلم للفقهاء وأنشأ المدارسَ للعلماء، وأسَّس الرباطات للعبَّاد والزهَّاد وأهل الصلاح والفقراء، ثمَّ أجرى لهم الجرايات والكسى والنفقات، وأجرى الخبز والورق لمن كان من أهل العلم مضافًا إلى أرزاقهم، وعمَّ بذلك سائر أقطار مملكته، فلم يكن من أوائل الشام وهي بيت المقدس إلى سائر الشام الأعلى وديار بكر والعراقين، وخراسان بأقطارها إلى سمرقند من وراء نهر جيحون مسيرة زهاء مائة يوم، حاملُ علمٍ أو طالبُه أو

١ تاريخ التربية الإسلامية، أحمد شلبي، ٢٩٤ – ٢٩٥.

٢ طبقات الشافعية الكبرى، السبكي، ٣/ ٢٣٠، تاريخ الجامعات الإسلامية، محمد عبد الرحيم غنيمة ،٢٣٧.

٣ سراج الملوك، الطرشوشي، ١٢٩.

زاهدٌ أو متعبّدٌ في زاويته إلا وكرامتُه شاملةٌ له سابغةٌ عليه».[1] والجديرُ بالذكر هنا أنَّ الطرطوشي شاهدَ نظامية بغداد وعايَنَ أوقافَها وهو الذي نقل لنا وصفَ بنائِها وموقعِها، وما يتعلق بها إلَّا أنَّ ذكرَه لأوقاف النظامية قد ينطبق على كل النظاميات في المدن مع تفاوتٍ ليس في الخدمات المقدَّمة بل في حجم الأوقاف وتنوُّعِها فمثالُ ذلك جعل نظام الملك في نظامية ظاخر لكلِّ فقيهٍ رأسٌ من الغنم في كل شهر، ولم يذكر أنَّ هذا كان في بغداد أو في غيرها وفي حين كان الطلَّاب يأخذون ما حُدِّد لهم من المال بالإضافة لتأمين المأكل والملبس والمسكن والفراش والسراج، وكلِّ لوازم الدارسة وهذا في كل النظاميات.[2]

وكلُّ هذا كان من أجل نشر المبادئ السامية في إطار عمليةٍ تربويةٍ للأجيال يُجمع فيها بين التربية السلوكية والنفسية والتربية الفكرية والعقائدية للطالب خاصَّة وأنَّ عملية التعليم بالجودة العليا قد لا تكون متوفِّرة لكل الناس، فقد يقف الفقر والفاقة حاجزًا أمام الأب لتعليم أبنائه، وقد لا يجد الطالبُ من يكفيه همَّ أهله إن هو سافر وتركهم للعلم فتحملُه الحاجةُ لترك مجالس العلم من أجل لقمة العيش، وهذا ما حصل مع نظام الملك نفسِه لمَّا اضطرَّ أن يترك مجالس شيوخه بسبب الفقر وتأمينِ العيش؛ لذلك أرادها أن تكون مجَّانيَّةً بالكامل يكفي الطالبُ همَّ أهله فيكون في مدرسته مطمئنَّ البال مرتاحَ النفس فتكون نتيجةُ التحصيل العلمي أكبرَ والفائدةُ أعمَّ. ولو نظرنا في تراجم معظم العلماء الذين درسوا في النظاميات أو في غيرها لوجدناهم قد خرجوا من بيوت فقيرةٍ فلمَّا كُفوا همَّ العيش أَغنوا دور العلم وخزائنَ الكتب بثراء علمهم وفقههم.

نظام التعليم في النظاميات

- سنُّ الطالب ومدَّة الدراسة

جرت العادةُ في نظام التعليم الإسلامي أن يقضيَ الطالب أوَّل عقدين من عمره في الكُتَّاب ثمَّ في حلقات المسجد، فإذا أتم حفظ القرآن الكريم يلتحق

١ المصدر السابق، ١٢٨.

٢ المصدر السابق، ١٢٨.

بإحدى المدارس التي يرغب بها،[١] وليس ما يدلُّ في المصادر على تحديد عمر المنتسب للنظاميَّة؛ لأنَّ العمر وإن تقدَّم بصاحبه لا يشكِّلُ عائقًا أمام طلبه للعلم، وهذا ما سارت عليه النظاميات.

- **أوقات الدراسة**

كانت مواعيدُ المحاضرات في النظامية منتظمةً موزَّعةً على مدار أيام الأسبوع، بحيث يتسنَّى لجميع المحاضرين من الأقسام الأربعة التي تتكوَّن منها النظامية أن يلقوا دروسَهم، وكانت مهمَّةُ توزيعها من اختصاص الناظر، وهذه الأوقاتُ ذكر منها ابن جبير أثناءَ زيارته لبغداد عام ٥٨٠هـ/ ١١٨٤م أنَّه حضر مجلسًا في النظامية عصر يوم الجمعة للشيخ رضي الدين القزويني.[٢]

- **المنهاج المقرر**

بحسب ما أورده الوزيرُ نظام الملك في نصِّ وقفيَّته على نظامية بغداد فإنَّها موقوفةٌ على أصحاب الشافعي أصلًا وفرعًا،[٣] وهذا يعني أنَّ أعضاء الهيئة التدريسية وموظفو الكادر الإداري هم من أتباع هذا المذهب كما بيَّنا ذلك من خلال مَن سبقت ترجمتُهم، سواءٌ كانوا مدرِّسين أو إداريين وبالتالي فإنَّ المنهج الذي سيتلقَّاه الطلبةُ هو على النحو الذي حدَّده نظام المُلْك، فالفقه شافعيٌّ والعقيدةُ أشعريةٌ ولا مشكلة في الحديث والنحو واللغة والتفسير طالما أنَّ الأساتذةَ شافعيون أشعريون، وقد جُعلت في النظامية أربعةُ أقسام؛ قسم الفقه وأصوله، وقسم الحديث، وقسم التفسير وعلوم القرآن، وقسم النحو واللغة والأدب.

ويُعتبر التأليفُ من الشروط الأساسية التي يتمُّ وفقَها اختيارُ المدرِّس لمنصب التدريس في النظامية، وجرت عادةُ الأساتذة في المدارس أن يجمعوا محاضراتهم ومواضيع دروسهم في كتاب، وكان الطلَّابُ يستمعون لشرح الأستاذ، ويكتبون ما

١ العبر، ابن خلدون .١/ ٥٠٦.

٢ ابن جبير، دار ومكتبة الهلال، ١٩٥.

٣ المنتظم، ابن الجوزي، ١٦/ ٣٠٤.

كان يقرِّره على الكتاب، وهو يملي عليهم،[1] ثمَّ تبدأ عمليةُ التدقيق بين الطلاب أنفسِهم على نُسَخهم، ومقابلتها؛ لتكونَ موافقةً لنسخة الأستاذ، وكان يُطلق على ما كان يدوِّنُه من حواشيَ على الكتاب اسمَ (التعليقة).[2] فقد أملى أبو إسحاقَ الشيرازي (ت٤٧٦هـ/ ١٠٨٣م) قد أملى على طلَّابه في مسجده في باب المراتب ببغداد تعليقةً له في أربع سنوات من ٤٥٦هـ/ ١٠٦٣م إلى ٤٦٠هـ/ ١٠٦٧م[3]، كما ذُكر عن ابن بَابْشَاذَ أنَّ تعليقةً له في النحو بلغت ١٥ مجلدًا سمَّاها (النحاة) ذهبت إلى ابن بركات السعدي ثمَّ انتقلت منه إلى تلميذه ابن برِّي، ومنه إلى تلميذه أبو الحسين النحوي،[4] وللإمام الغزالي تعليقةٌ في أصول الفقه، وقد ذكر أنَّه في إحدى أسفاره تعرَّض لقطاع طرقٍ فأخذوا ما كان معه من متاعٍ ومن جملتها التعليقةُ، «فقال لمقدَّم اللصوص ردُّوا إليَّ تعليقتي، فقال: وما التعليقةُ؟ قال: مِخلاةٌ فيها كتب علمي، وقصصت عليه قصَّتي، فقال لي: كيف تعلَّمت وأنت تأخذ هذه المِخلاة تتجرَّد من عملك، وبقيتَ بلا علم! فردَّها عليَّ، فقلت: هذا مستنطَقٌ أنطقه الله ليرشدني لأمري، قال: فدخلت طوس، وأقبلت على أمري ثلاث سنين حتى حفظت جميع ما علَّقت، فصرت بحيث لو قُطع الطريق لا أُحرم علمي»،[5] وذكر ابن عساكر عن أبي الفتح المقدسي أنَّه كانت له تعليقةٌ في الفقه بلغت ٣٠٠ جزء.[6]

كما كان من عادة الشيوخ في النظاميات أنَّهم إذا ما انتهوا من تدريس الكتاب أقاموا احتفالًا ومأدبةَ طعامٍ جمعوا عليها طلبة العلم والفقهاء والأئمَّة، كما فعل أبو المعالي الجويني إمام الحرمين في نظامية نيسابور عندما انتهى من كتابه نهاية

١ نظام الملك، عبد الهادي رضا محبوبة، ص٣٥٨.

٢ التعليقة مَا يذكر فِي حَاشِيَة الْكتاب من شرح لبَعض نَصه، وَمَا يجْرِي هَذَا المجرى وجمعها تعاليق. انظر: المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى وآخرون ٢/ ٦٢٢.

٣ المنتظم، ابن الجوزي، ١٧/ ٢٨٥.

٤ وفيات الأعيان، ابن خلكان، ٢/ ٥١٥ – ٥١٦.

٥ بغية الطلب في تاريخ حلب، ابن العديم، ٥/ ٢٤٨٩ – ٢٤٩٠.

٦ تاريخ دمشق، ابن عساكر، ٦٢/ ١٧.

المطلب في دراية المذهب.[١]

- **أعضاء الهيئة التدريسية**

حرص نظام الملك على دقَّة اختيار المدرِّسين الذين سيعتمد عليهم في عملية التعليم النظامي، وكان يخضع المدرِّسُ إلى اختبارٍ؛ ليُعرف علمُه وفقهُه ، ويُعقد لذلك مجالسُ المناظرات كما حصل مع أبي حامد الغزالي، أو يختبرُ المدرِّس بنفسه في مقابَلةٍ خاصَّةٍ يطرح عليه الأسئلة فينظرُ في أجوبته، وطريقته في الاستدلال، وسعة إطِّلاعه، وهذا ما حصل مع أبو بكر الخونجندي، وكان يُعهد بالتدريس لمن ذاع صيتُه وانتشر علمُه، وعلت مكانتُه بين الناس كأبي المعالي الجويني، وأبو القاسم القشيري، وأبو إسحاق الشيرازي، كما مُنح الأساتذةُ الكبار من علماء النظاميات حقَّ اختيار المدرسين أو أن يوصوا لمن يخلُفهم في مهمَّتهم سواءٌ من أبناءهم أو خواصِّ تلاميذهم.

وإذا ما تمَّت الموافقة على تعيين المدرِّس يرسل إلى الجهة التي عُيِّن بها، وعند وصوله يُخلع عليه طرحةٌ زرقاء وأهبةٌ سوداء، ويُحتفل به في المدرسة حين يقدم لأوَّل مرة، ويحضر درسَه كبارُ رجال الدولة والأساتذةُ والشعراء وحين ينتهي من درسه تُلقى الخطبُ والقصائدُ في الترحيب به والثناء عليه، وهذه المراسمُ توضِّح درجةَ التقدير العالية وحجمَ مكانة المعلِّم في ذاك الوقت وأنَّه يستحقُّ هذه الاحتفالية وبحضور كبار مسؤولي الدولة.

وإذا كان المدرِّس ذا قدمٍ راسخةٍ في العلم وشهرةٍ ومكانةٍ عاليةٍ بقي في منصبه حتى وفاته، وهذا ما حصل فعلًا مع أبي إسحاقَ الشيرازي، وأبي القاسم القشيري، كما يُمنح مِيزةً أخرى وهي أن يختار من يخلُفُه سواءٌ من أبنائه أو من تلاميذه المتفوِّقين. كما فعل أبو إسحاق الشيرازي حين أوصى لأبي سعدٍ المتولّي بالتدريس مكانَه في نظامية بغداد.[٢]

١ دولة السلاجقة وبروز مشروع إسلامي، محمد علي الصلابي، ٢٩١.

٢ دولة السلاجقة، الصلابي، ٣٤٧.

ويُطلق لقبُ الأستاذ على يبلغ مرتبةً عالية من الشهرة والتأليف والتحقيق فيصبحُ له كرسيٌّ دائمٌ ودون منازع،[1] ويُطلق كذلك لقبُ الصدر وهو إمام العصر في الفقه أو الحديث أو التفسير، أو في أيِّ علمٍ من العلوم، أو هو من أكبر الأئمة في عصره، وأكثرِهم تمكُّنًا من مادَّته العلمية، وعلى يديه يتخرَّج الكثيرُ من نوابغ المدرسين، وإليه يذهب الملوكُ والأمراء والوزراء والفضلاءُ لسماعه والإفادة منه، وليس من الضروري أن يكون في كل مدرسة صدرٌ؛ فأولئك قلَّةٌ، ومن حسن حظِّ المدرسة وكمال شهرتها أن يتصدَّر للتدريس بها أحدُهم،[2] وكان إمامُ الحرمين أبو المعالي الجويني ممَّن بلغ هذه المرتبةَ من أساتذة النظاميات، كما يطلق لقب المدرِّس على المختصِّ بمادة الفقه، ولا يجوز أن يتولَّى تدريسَ غير هذه المادَّة.[3]

وكان المدرِّس يُوكل من ينوب عنه في إعطاء الدرس في حال غيابه لمرض أو عملٍ إداري أو سفر،[4] وكان كذلك يختار من بين طلَّابه من يرى فيه التفوُّق والاجتهادَ واللباقة في الكلام؛ ليساعده في الدرس فيقرأَ على التلاميذ ويساعدَهم على فهمه.[5]

أشهر أساتذة النظاميات وأثرهم العلمي

- أبو إسحاق الشيرازي

هو أبو إسحاقَ إبراهيم بن علي بن يوسف الفيروز آبادي، الفقيه الشافعي المعروف بجمال الدين، من أهل فيروز آباد، ولد عام ٣٩٣هـ/ ١٠٠٢م، وتوفي عام ٤٧٦هـ/ ١٠٨٣م،[6] تتلمذ على أبو عبد الله البيضاوي بفيروز آباد، كما قرأ على أبو

١ نظام الملك، ٣٥٦.
٢ الإدارة التربوية في المدارس في العصر العباسي، محمد علي الرجوب، ١٣٥.
٣ نظام الملك، عبد الهادي رضا محبوبة، ٣٥٧.
٤ المصدر السابق، ٣٥٧.
٥ المصدر السابق، ٣٥٨.
٦ طبقات الفقهاء الشافعية، ابن الصلاح ١/ ٣٠٢.

القاسم الداركي وعنه أخذ إسناده في الفقه إلى الإمام الشافعي إمام المذهب،[١] وفي بغداد قرأ على أبو الطيّب الطبري حتى صار من أعظم أصحابه ومعيدٍ عنده، كما أخذ الحديث عن أبي علي بن شاذان وأبي بكر البرقاني، وفي الأصول عن أبي حاتم القزويني. وكان ممن روى عنه أبو بكر الخطيب ت٤٦٣هـ/ ١٠٧٠م صاحبُ تاريخ بغداد، وأبو الوليد الباجي ت٤٧٤هـ/ ١٠٨١م قاضي الأندلس، صاحب (المنتقى في شرح الموطأ)، والزاهد يوسف بن أيوب، وإسماعيل بن السمرقندي، وأبو نصر الطوسي، وآخِرُ من روى عنه أَحْمَدُ بنُ نَصْرِ بن حِمَّان الهَمَذَانِيُّ، ومن أجلِّ تلاميذه وأعلاهم مكانةً إمام الحرمين عبد الملك الجويني،[٢] وقد حدَّث عن نفسه واصفًا كثرةَ تلاميذه فقال: «دخلتُ خُراسان وليس فيها قاضيًا أو خطيبًا أو مفتيًا إلَّا كان من تلاميذي».[٣]

أمَّا طلبه للعلم: فقد قال عن نفسه: كنت أُعيد الدرس مئة مرَّة وإذا مررت ببيتٍ من الشعر يُستشهدُ به كنت أحفظ القصيدة من أجله، وكنت أُعيد القياس ألف مرَّة فإذا فرغت أخذت القياس الثاني؛ أي مدارسته. وَكَانَ يَقُول: الْعلم الَّذِي لَا ينْتَفع بِهِ صَاحبه؛ أَن يكون الرجل عَالمًا وَلَا يكون عَاملًا، وينشد لنَفسِهِ:

علمتَ مَا حلَّل الْمولى وَحرَّمه فاعمل بعلمك إِنَّ الْعلم بِالْعَمَلِ[٤]

أثنى عليه العديد من العلماء، فقد قال عنه أبو سعدٍ السمعاني: «شيخ الدهر، وإمام العصر يأتيه الناس من كلِّ الأمصار، ويقصدوه من كلِّ الجوانب والأقطار،[٥] وورد عن عميد الدولة ابن جهير الوزير قولُه: أبو إسحاقَ وحيد عصره، وفريد

١ أبو القاسم الداركي، قرأ على المروزي، وقرأ المروزي على ابن سريج، وقرأ ابن سريج على ابن الأنماطي، وقرأ ابن الأنماطي على المزني والربيع بن سليمان، وقرأ على الشافعي، إمام المذهب. انظر: ذيل تاريخ بغداد، ابن النجار ٢١/ ٣٢.

٢ سير أعلام النبلاء، الذهبي، ١٨/ ٤٥٤.

٣ المصدر السابق، ١٨/ ٤٦٣.

٤ طبقات الفقهاء، ابن الصلاح، ١/ ٣١٠، طبقات الشافعية، السبكي، ٤، / ٢١٨- ٢٢٦.

٥ الذهبي: المصدر السابق، ١٨/ ٤٥٤.

دهره، ومستجابُ الدعوة،[1] وقال أَبُو بَكْرٍ الشَّاشِيّ: أَبُو إِسْحَاقَ حُجَّةُ اللهِ عَلَى أَئِمَّة العَصْر.[2]

أمَّا مكانتُه: فذُكر أنَّ أبا إسحاق خرج رسولًا من الخليفة العباسي المُقتدي بالله إلى خُراسان للقاءِ السلطان ملكشاه والوزير نظام الملك، وقد اصطحب معه في رحلته فخرَ الإسلام الشاشي وأبا علي الطبري وَأَبُا ثَعْلَب الوَاسِطِيّ وَعبدَ الْملك الشابرخواستي وَأَبُا الْحسن الْآمِدِيّ وَأَبُا الْقَاسِم الزنجاني وَأَبُا عَليّ الفارقي وَأَبُا الْعَبَّاس بن الرطبي وَغَيرَهم. فلمَّا رآه الناس رجالًا ونساءً وصغارًا راحوا يتمسَّحون به ويأخذون من غباري قدميه ويسترشفون به وهو ينهاهم ولا ينتهون حتى أنَّ أرباب المهن راحوا يلقون الحلوى والفواكه والثياب فوق رؤوس الناس فرحًا وابتهاجًا بأنَّ الشيخ قد مرَّ بأرضهم.[3] وأمَّا نظام الملك فكان يُجلُّه أيَّما إجلالٍ وولَّاه التدريس في نظامية بغداد منذ افتتاحها عام ٤٥٩هـ/ ١٠٦٦م إلى حين وفاته عام ٤٧٦هـ/ ١٠٨٣م ولمَّا جلس أبو سعد المتولّي للتدريس مكان الشيخ أبي إسحاق وبوصيَّةٍ منه سمع نظام الملك بذلك فقال ''كان ينبغي أن تغلق النظامية عامًا كاملًا حزنًا على أبي إسحاق.[4]

أمَّا آثارُه العلمية: فعادة العلماء لا يورّثون دينارًا ولا درهمًا، وإنَّما يورّثون العلم، فقد ارتحل أبو إسحاق، وترك مؤلفاتٍ تربَّت عليها أجيالٌ عدَّةٌ، وما زلنا نعيش عليها إلى يومنا هذا: فمنها كتابُه (المهذَّب في المذهب)، وقد صنفه في ١٤ عام قال عن كتابه هذا:« بدأت بتصنيف '' الْمُهَذّب '' سنة خمس وَخمسين وَأَرْبع مئة، وفرغت مِنْهُ آخر رَجَب يَوْم الْأَحَد من سنة تسع وَسِتِّينَ وَأَرْبع مئة »،[5] وقال عنه الصفدي: «فيه ١٢٠٠٠ مسألة ما كتب مسألة إلَّا وتوضَّأ وصلَّى ركعتين ودعا

١ طبقات الفقهاء، ابن الصلاح، ١/ ٣٠٤.
٢ سير أعلام النبلاء، الذهبي، ١٨/ ٤٥٥.
٣ طبقات الشافعية، السبكي، ٤/ ٢١٩.
٤ سير أعلام النبلاء، الذهبي، ١٨/ ٤٦١.
٥ طبقات الفقهاء الشافعية، ابن الصلاح، ١/ ٣٠٩.

الله أن ينفع به مشتغلَه»،[١] كما صنَّف (التنبيه) و(اللمع فِي أصُول الْفِقْه) و(شرح اللمع) و(المعونة فِي الجدل) و(الملخَّص فِي أصُول الْفِقْه).[٢]

عبد الملك الجويني

هو أَبُو الْمَعَالِي عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ يُوسُفَ الْجُوَيْنِيُّ المعروف بإمام الحرمين، أبوه عبد الله إمام جليل من علماء نيسابور، مولده سنة ٤١٩هـ/ ١٠٢٨م ووفاته سنة ٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م، أخذ عن أبيه الفقه والتفسير، وعن أَبِي سَعْدٍ النّصروِيّ، وأبي القاسم الاسفراييني، وأخذ عن أبي إسحاق الشيرازي علمَ الأصول، كما أخذ الحديث عن أبي نُعيم الأصبهاني الحافظ صاحبِ حلية الأولياء، وعن أبي الحسن المجاشعي النحوِ صاحب العوامل والهوامل، والتحق بمدرسة الإمام البيهقي وأخذ عن مدرِّسيها.[٣]

أمَّا تلاميذه: فقد كان لبناء النظامية في نيسابور أثرٌ كبير في إقبال الناس على الإمام الجويني حتى ذُكر أنَّ مجلسه كان يجتمع فيه نحو ٤٠٠ طالب وإمام. ومن أشهر تلاميذه الذين كان لهم أثرٌ مثلِ أستاذِهم أبي حامد الغزالي وأبي نصر القشيري وأخيه عبد الرحيم، والكيا الهرَّاسي.

أمَّا ثناء العلماء عليه: فقد قيل فيه الكثير وتحدَّث الشعراء عن علمه وفقهه وورعه وزهده، وأقرَّ العلماء بفضله وعلوِّ مكانته، فقال أبو سعدٍ السمعاني: «كان أبو المعالي، إمامَ الأئمَّة على الإطلاق، مُجمعًا على إمامته شرقًا وغربًا، لم تر العيونُ مثلَه»،[٤] وقال شيخه المجاشعي: "ما رأيت عاشقًا للعلم مثلَ هذا الإمام"[٥] وقال القاضي أبو سعيد الطبري لمَّا ذُكر له إمام الحرمين: "بل هو إمام خُراسان والعراق لفضله وتقدُّمه بالعلوم".[٦]

١ الوافي بالوفيات، الصفدي، ٦/ ٤٢.
٢ المصدر السابق، ٦/ ٤٢.
٣ سير أعلام النبلاء، الذهبي، ١٨/ ٤٦٩.
٤ المصدر السابق، ١٨/ ٤٧٠.
٥ تبيين كذب المفتري، ابن عساكر.
٦ الوافي بالوفيات، الصفدي، ١٩/ ١١٧.

أمَّا طلبُه للعلم: قال إمام الحرمين عن نفسه ما تكلَّمت في علم الكلام كلمةً حتى حفظت من القاضي أبو بكر ١٢٠٠٠ ورقة،[١] وقال يومًا لتلميذه أبي حامدٍ الغزالي يا فقيه ثمَّ أشار له إلى باب في المكان يفتحه ففتحه الغزاليُّ فوجده مملوءًا بالكتب، فَقَالَ لَهُ مَا قيل لي يَا فَقِيه حَتَّى أتيت على هَذِه الْكتب كلِّهَا.[٢] وكان يقول في طلب العلم:[٣]

أَخي لَن تَنالَ العِلمَ إِلّا بِسِتَّةٍ سَأُنبيكَ عَن تَفصيلِها بِبَيانِ
ذَكاءٌ وَحِرصٌ وَاِجتِهادٌ وَبُلغَةٌ وَصُحبَةُ أُستاذٍ وَطولُ زَمانِ

ولمَّا وقعت الفتنةُ في نيسابور خرج إلى مكَّةَ، وهناك أخذ يجمع طُرُق المذهب وكان مع هذا يفتي ويدرِّس، وممارستُه للتدريس بدأت بعد وفاة أبيه فكان يقعد في المجلس للتدريس ثمَّ يذهب لمدرسة البيهقي.[٤]

أمَّا آثارُه العلمية: رحل الإمام الجويني تاركًا وراءهُ إرثًا حضاريًا بكلِّ ما تحمله هذه الكلمة من معنى، فكتابُه (غِياث الأمم)، وُضع أصلًا؛ لتبيان حقيقة الدين الإسلامي في أمور الإمامة والولاية وجملة الشريعة وفق اجتهاده، وهذا الكتاب شامل لمسائل الإمامة، وما يتعلَّق بها من أمور. والبِنية الأساسية لموضوع الكتاب هي الردَّ على المخالفين لأهل السنَّة وعلى الأخصِّ الفرقَ الإسلامية من الشيعة في موضوع الإمامة، ولذا أصبح مرجعًا في هذا الشأن، كما يُعدُّ كتاب (غياث الأمم) أوسعَ كتابٍ ظهر في الفكر السياسي الإسلامي في مسائل الإمامة إذا ما قورن بكتاب الأحكام السلطانية للماوردي والسياسة الشرعية لابن تيمية وتحرير الأحكام لابن جماعة، وهو يناقشُ نظريَّة الإمامة وما يدور حولَها، كوجوب نصب الأئمَّة وقادة الأمَّة، والجهاتِ التي تعين الإمامة وتوجب الزعامة، وصفاتِ أهل الحلِّ والعقد، واعتبارِ العدد فيمن إليه العهد، وصفاتِ الإمام القوام على أهل

١ طبقات الشافعية، السبكي، ٥/ ١٨٥.
٢ المصدر السابق، ٥/ ١٨٥.
٣ الوافي بالوفيات، الصفدي، ١٩/ ١١٨.
٤ وفيات الأعيان، ابن خلكان، ٣، ١٦٨.

الإسلام، والطوارئِ التي توجب الخلعَ والانخلاع، وإمامةِ المفضول، ونصب إمامين، وتفصيلِ ما إلى الأئمة والولاة، ويعلّقُ الدكتور الصلّابي بأنَّ هذا الكتابَ واحدٌ من أهم ثلاث كتب في تراثنا تخصُّ الاقتصاديين الإسلاميين فيقول: "الغياثي لإمام الحرمين وهو أسبقُها، وقواعدُ الأحكام لسلطان العلماء وهو أمتعُها، ومقدِّمةُ ابن خلدون وهو أشملُها".[١]

ومن مؤلفاته في العقيدة: لُمَع الأدلَّة في قواعد أهل السنة، والإرشاد إلى قواطع الأدلَّة في أصول الاعتقاد، والشامل في أصول الدين، وشفاء الغليل في بيان ما وقع في التوراة والإنجيل من التبديل، ورسالة في أصول الدين، ومسائل الإمام عبد الحق الصقلي وأجوبتها، ومختصر الإرشاد للباقلاني، والعقيدة النظامية، وكتاب النفس، وكتاب الكرامات، ومدارك العقول.

أما كتبه في الفقه وأصوله فهي: نهاية المطلب في دراية المذهب، ومختصرُ النهاية، والبرهان في أصول الفقه، والورقاتُ، والتلخيص في أصول الفقه. ومن مؤلفاته في الخلاف والجدل والسياسة: مُغيثُ الخلقِ في اختيار الأحقِّ، والأساليب، والدرَّة المعنيَّة فيما وقع من خلاف بين الشافعية والحنفية.

خاتِمةُ البحث

بناءً على ما تقدَّم به البحث يخلصُ الباحثُ إلى نتائجَ عديدةٍ، ودروسٍ مفيدةٍ تعكس القيمةَ العلمية لهذا الموضوعِ المتكاملِ من كلِّ جوانبه الحضارية، والتربوية، والنفسية، والأخلاقية، وتُعدَّ هذه الجوانب مقوماتِ المنهج الإنساني المتكاملِ الذي أراده الله في الأرض، وهذا المنهجُ هو أساس بناءِ نظامٍ اجتماعي واقتصادي وسياسي وثقافيٍّ للبشرية، ومن خلال الفصول التي تضمَّنها البحثُ يخلص الباحثُ إلى جملةٍ من النتائج والتوصيات تتمثَّل في الآتي:

١ دولة السلاجقة، الصلابي، ٣٥٣.

أ- إنَّ النظام المدرسيَّ تميَّز عن غيره من مؤسسات التعليم بأنَّه كان يقوم على جهازين أساسيين هما الجهازِ الإداري الذي كان يشرف مباشرةً على النظام الداخلي للمدرسة ومواردها ومصروفاتِها، والجهازِ الثاني هو هيئةُ المدرِّسين الذين يشرفون على وضع المنهاج الدراسي وفق التوجُّه العامّ للمدرسة وتدريسه للطلبة.

ب- إنَّ فكرة المدارس لم تكن وليدةَ القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، بل تعود بجذورها التاريخية إلى نهايات القرن الثاني للهجرة/ الثامن للميلاد، وتحديدًا في مدينة بخارى ورئيسِ علماءها في ذلك الوقت أحمد بن حفصٍ البخاري الحنفي (ت٢١٧هـ/ ٨٣٢م) شيخِ الإمام البخاري صاحب الجامع الصحيح.

ج- إنَّ وجود المُصلِحين داخل الإدارة العليا للدولة مثلِ الوزير نظامِ الملك يُسهم في إثراء الحركة العلمية لما للبطانة الصالحة من أثرٍ على السلطان وسياسته الداخلية والخارجية، وهذا الخير ينعكس ليس على الحركة الثقافية فقط؛ بل على الخدمات الاجتماعية وإنشاء المؤسسات التي تؤدِّي دورين في آنٍ واحدٍ اجتماعي وعلمي مثلِ الخوانق والرُّبط والزوايا.

د- جاء نظام المدارس ليتمِّم مسيرة المسجد وليس لإضعاف دوره كما يُشاع لأنَّ المساجد سبقت المدارس في مسيرة التعليم وكثيرًا ما كانت المدارسُ تلحق بالمساجد، ولكنَّ متطلَّبات التخصُّص العلمي كان يقتضي أحيانا وجودَ مدارسَ منفصلة عن المسجد تمامًا كمدارس الطبِّ والصيدلة، وكلُّ مدرسةٍ كانت تحتوي على مصلًّى في داخل هيكلها التنظيمي.

ه- أسهمت المدارسُ النظامية في نشر المذهب الأشعريّ الممزوج بالفقه الشافعي، ولولا النظاميات لما كان لهذا المذهب أن ينتشر على هذا النطاق الواسع.

و- إنَّ المدارس النظامية قد وُفِّقت في تخريج أجيالٍ كان منهم من وصل لمناصب الحكم فأسهموا مع أُسَرِهم في انتشار المدارس وتطوير الحركة العلمية على كافَّة الأصعدة.

ز- كان للعلماء دورٌ كبير في بناء المدارس على المذاهب الفقهية الأربعة، كما حثُّوا الأثرياء على الإسهام في هذا الميدان.

ح- لعبت المدارسُ دورًا فعَّالًا في تقويض النشاط الباطني في مختلف البلاد الإسلامية، كما أَنَّ مناطق الأرياف والصحراء البعيدة عن مراكز المدن هي أرضٌ خِصبةٌ لنشوء الحركات والجماعات، فقد كانت هذه المناطق مراكزَ انطلاقٍ نحو المدن الكبرى، وتهديدٍ الدول القائمة.

ط- بيَّن البحثُ أنَّ الأمَّة لا يمكن أن تسموَ بحضارتها دون وجود ركيزتين أساسيتين الحاكمِ العادلِ والعالمِ الربانيِّ؛ لأن الأول يُقيم العدلَ على الرعية، والثاني يُقيم العدل على الحاكم، وبذلك يستقيم الحاكمُ والمحكومُ.

هذه خلاصةُ ما وصل إليه الباحثُ وعليها يوصي الباحث بما يلي:

١- أن تقوم الجامعات بحثِّ الباحثين في الدراسات العليا على البحث في تاريخ المدارس والدَّور الذي لعبته في الحياة السياسية والاقتصادية والإدارية للدول وليس الثقافيَّ والعلميَّ فقط.

٢- تنبيه الحكوماتِ بأهميَّة وخطورة المناطق النائية في الأرياف والصحاري فينبغي عليها بذلُ الاهتمام البالغ فيها كاهتمامها بالمدن.

٣- أن تقوم الجامعات بلعبِ دورٍ كبير في القضاء على الأميَّة في أرجاء البلاد من خلال قرارٍ يُلزم طلابَ المراحلِ الجامعية الأولى والدراسات العليا بالحصول على وثيقةٍ تُثبت أنَّه قام بتعليم أربعة من الأُميِّين يقدمها مع أوراق التخرُّج ويُمكن في بضع سينين القضاءُ التامُّ على الأمِّيَّة في البلاد كلِّها.

هذا جهدُ مقلٍ أتقدَّم به فما كان من صوابٍ وتوفيقٍ فمِن الله وحدَه وما كان من خطأٍ فمنِّي ومن الشيطان وآخرُ دعوانا أنِ الحمدُ لله رب العالمين.

مصادر البحث ومراجعه

- ابن جبير، دار ومكتبة الهلال، بيروت
- آثار البلاد وأخبار العباد، القزويني، دار صادر، بيروت.
- الإدارة التربوية في المدارس في العصر العباسي، محمد علي الرجوب، مؤسسة حمادة للدراسات الجامعية والنشر، إربد، الأردن.
- أسواق بغداد عبر التاريخ، خالد سكماني مجلة الموروث، وزارة الثقافة العراقية، العدد الثالث.
- آكام المرجان في ذكر المدائن المشهورة في كل مكان، المنجم، دار عالم الكتب، بيروت.
- الباهر في الدولة الأتابكية، ابن الأثير.
- البداية والنهاية، ابن كثير ت علي شيري، دار إحياء التراث، بيروت.
- بغية الطلب في تاريخ حلب، ابن العديم، ت سهيل زكار، دار الفكر، بيروت.
- البلدان، اليعقوبي، دار الكتب العلمية، بيروت.
- تاريخ الإسلام، الذهبي.
- تاريخ التربية الإسلامية، أحمد شلبي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.
- تاريخ الجامعات الإسلامية، محمد عبد الرحيم غنيمة، دار الطباعة المغربية، تطوان.
- تاريخ دمشق ابن عساكر.
- التحبير في المعجم الكبير، السمعاني، ت منيرة ناجي سالم، دار الأوقاف بغداد.
- تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم، ابن جماعة، ت عبد السلام عمر علي، مكتبة ابن عباس، القاهرة.
- تكملة المعاجم العربية، رينهارت بيتر آن دُوزِي، ترجمه إلى العربية محمَّد سَليم جمال الخياط، النعيمي، وزارة الثقافة العراقية.

- الدارس في تاريخ المدارس، النعيمي، ت إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت.
- دور القرآن في دمشق، النعيمي، ت صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد، بيروت.
- دولة السلاجقة وبروز مشروع إسلامي، محمد علي الصلابي، مؤسسة أقرأ، القاهرة.
- ذيل تاريخ بغداد، ابن النجار، ت مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية.
- الروض المعطار في خبر الأقطار، الحميري، ت إحسان عباس، دار ناصر للثقافة، بيروت.
- سراج الملوك، الطرطوشي.
- سير أعلام النبلاء، الذهبي.
- الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية طاشكبري زاده، الكتاب العربي، بيروت.
- طبقات الشافعية الكبرى، السبكي.
- طبقات الشافعية، ابن قاضي شهبة، ت عبد العليم خان، دار عالم الكتب، بيروت.
- طبقات الفقهاء الشافعية، ابن الصلاح، ت محي الدين علي نجيب، دار البشائر الإسلامية، بيروت.
- طبقات النسابين، بكر بن عبد الله أبو زيد، دار الرشد، الرياض.
- العبر، ابن خلدون ت خليل شحادة، دار الفكر، بيروت.
- الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، ابن الطقطقي، دار القلم، بيروت.
- الكامل في التاريخ، ابن الأثير، ت عمر عبد السلام التدمري، دار الكتاب العربي، بيروت.
- المدرسة نشأتها وتطور عمارتها عبد الله كامل موسى عبده، مجلة الوعي الإسلامي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت.
- مرآة الجنان وعبرة اليقظان، اليافعي، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.
- مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، ابن شمائل القطيعي، دار الجيل، بيروت.

- معجم الأدباء الحموي، ت إحسان عباس، الغرب الإسلامي، بيروت.
- معجم البلدان، الحموي.
- المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى وآخرون، دار الدعوة، القاهرة.
- معجم شعراء المدح النبوي، محمد أحمد درنيقة، دار الهلال، بيروت.
- مقاهي بغداد القديمة، عبد الرحمن لمعان، مجلة الموروث، وزارة الثقافة العراقية.
- منادمة الأطلال، عبد القادر بدران، ت زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، بيروت.
- المنتخب من كتاب السياق لتاريخ نيسابور، أبو اسحاق الصّريفينيّ ت خالد حيدر، دار الفكر.
- المنتظم، ابن الجوزي.
- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، المقريزي، دار الكتب العلمية.
- نظام الملك، عبد الهادي رضي محبوبة، الدار المصرية، اللبنانية، القاهرة.
- الوافي بالوفيات، الصفدي، ت أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت.
- وفيات الأعيان وأنباء الزمان، ابن خَلِّكان، ت إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت.